

دراسة

إحياء
Ihyaee



السلوك الجنسي

للإنسان المعاصر

محمد زاوي

11 يناير 2020

جميع الحقوق محفوظة © 2020

محاور الدراسة:

مدخل

المحور الأول: السلوك الجنسي للإنسان... محاولة أولية للتفسير

1-النشاط الجنسي ليس شيطاناً يُتعوذ منه

2-فسيولوجيا النشاط الجنسي

3-سوسيولوجيا النشاط الجنسي

4-سيكولوجيا النشاط الجنسي

5-الجنس بين السر والعلن: الخطأ وارد والقيود لازمة

المحور الثاني: تنظيم النشاط الجنسي في الإسلام

1-الشهوة مصلحة يخاطبها الإسلام بدل أن يترفع عنها

2-تنظيم النشاط الجنسي في الإسلام: بين المثال والواقع

المحور الثالث: الجنس في فكر الإسلاميين

1-"الرباط المقدس" ووسائله عند سيد قطب ومحمد قطب

2-"النظرية الجنسية في الإسلام" عند فتحي يكن

3-"وسطية السلوك الجنسي" عند يوسف القرضاوي

4-"الجنس والتجاوز" عند عبد الوهاب المسيري

المحور الرابع: التنظير للثورة الجنسية... مساءلة معرفية تاريخية

1- فيلهلم رايش

2- عبد الصمد الديالمي

المحور الخامس: الجنس في سياق الصراع العالمي

1- أزمة النظام الرأسمالي وتصدير الانحراف الجنسي لدول الجنوب

2- الجنس ومخاطر الغريزية

خلاصة الدراسة

السلوك الجنسي للإنسان المعاصر الاغتراب في نظام الرأسمالية المتوحشة والتفكك في زمن الاستعمار الجديد

مدخل:

بداية، نبسط تصورنا للعلاقة بين الجنسين في أبيات نظمناها كآلاتي:



إياك والحديث بالقديم

وسدد العلم بذا الترميم



والأسرة طارئة في ذا الزمان

بعد تشاجر تناحر بلا توان



والفطرة توافق الطبيعة

والمنهج عد فيه للشريعة



والميل في الأصل قصد النساء

منظم في شرعنا قصد السواء



والأسرة تضحية بذل نضالُ

فليفرح الجمع وحق الاحتفالُ



لا تبتئس ولا تطغ على الضعافِ

دعهم أعن خفف بالاعترافِ



ما وددت قوله من خلال هذه الأبيات هو الآتي:

- كل ما قيل عن الجنس والأسرة في الإسلام، هو في حاجة إلى تجديد على عدة مستويات: الخطاب والدعوة والقراءة والتفكير... وليس بالضرورة أن يكون هذا التجديد بعيدا عن الإسلام كما يقول البعض، ولكن انطلاقا منه ومن واقع الناس. لا يمكن أن نكتفي بتصوير النشاط الجنسي للإنسان كما تصوره الذين كانوا قبلنا، وهم الذين كانوا يفتقرون إلى البيولوجيا والسوسولوجيا والسيكولوجيا... ولا يمكن أن نكتفي بالدعوة إلى تشكيل الأسر وحفظ الأنسال بعيدا عن شروطنا التاريخية، فالأسرة في التاريخ ليست كما هي المثال.

- لم يكون الإنسان الأسرة كما هي الآن إلا بعد مسار من التناحر والتخالط والفوضى والبحث عن النظام، فالأسرة نتاج تاريخي للإنسان.

إنها المعبر الأكبر عن ذلك "التسامي" الذي كابد عناءه الإنسان، مهما كلفه من تزل عن تنويع للجنس وعدم اعتبار للمسؤوليات.

- الفطرة هي موافقة طبيعة الإنسان كما هي، حيث الميل للنساء، والمنهج هو الشريعة التي تنظم النشاط الجنسي البشري وفق شروطنا التاريخية، فيمارس الجنس دون أن يهدد ما راكمه الإنسان من حضارة وتمدن.

- أن تتشكل أسرة في هذا الزمن، فذلك ليس بالشيء السهل.

وذلك، حيث ينتشر الانحلال ويضعف تأثير الإيديولوجيات الصلبة وتعسر مسؤوليات أرباب البيوت... ومن الواجب على الوعاظ والفقهاء إذن، أن يفرحوا بالأعراس ويغضوا الطرف عن بعض ما يعتبرونه تجاوزات من قبيل الغناء والموسيقى والرقص والاختلاط والتبذير... فالفرح بتشكيل أسرة أولى من الحزن على تجاوزات ليلة بائدة، فالخسارة الحقيقية هي خسارة معركة لا ليلة من الليالي.

إن هذه الدراسة لا تعبر إلا عن تفكير مرحلي في موضوع "النشاط الجنسي الإنساني"، ولذلك فهي بداية ولا يمكن أن تكون نهاية في أي حال من الأحوال.

إنها محاولة متواضعة للاحتكاك مع "طابو" الجنس من عدة زوايا للنظر: بيولوجية واجتماعية ونفسية وتاريخية وإيديولوجية وسياسية... إنها نقاش مفتوح مع: الفقهاء والوعاظ والإسلاميين والماديين و"الحداثيين" والعلماء المتخصصين وعامة الناس... إنها محاولة لفهم ما يقوله كل متخصص، وفق المستطاع وما تمكن منه الوعي الحالي.

إنها نقاش يفتح في أجواء معركة حامية الوطيس بين الدول الوطنية وما يهددها من تفكيك أخلاقي واختراق ثقافي وتقسيم جغرافي واستغلال

اقتصادي، بين نصب السلاسل ورفسها (مصطفى فضل النقيب)، بين الحركة الوطنية والاستعمار...

المحور الأول: السلوك الجنسي للإنسان... محاولة أولية للتفسير

1-النشاط الجنسي ليس شيطاناً يُتعوذ منه

إن للعلم أهمية تتجلى في تفكيك الخلفيات الإيديولوجية لبعض الفرضيات التي تساق كأنها نظريات في مختلف قضايا النشاط الجنسي البشري.

وهنا لم يعد التفسير العلمي للجنس مجرد اهتمام ثانوي تهتم به القلة القليلة، ويحذر منه الدعاة والشيوخ والمفكرون الإسلاميون. فنحن أمام اختيارين:

- إما أن نفسر النشاط الجنسي للإنسان وفق شروطنا التاريخية، فننتصدى للشبه التي تسوق للشباب على أنها حقائق قاطعة.

- وإما أن نكتفي بالتحذير والوعظ وسوق الأحكام بأدلتها (على أهمية ذلك)، فننحسر وننعت بالتخلف عن تطور العلوم الطبيعية والإنسانية.

الجنس ليس شيطاناً يُتعوذ منه، الجنس نشاط بشري يُدرّس فيسيولوجيا ونفسيا واجتماعيا وتاريخيا.

إنه سلوك أصيل يُفسّر ويربّي الأفراد على ضبطه وفق الشروط التاريخية لمجتمعاتهم، فيستمتعون به دون أن يشكلوا خطرا على أنفسهم وعلى غيرهم.

فما الجنس إذن؟

"الجنس غريزة في الإنسان مثل غيرها من الغرائز التي تتحكم به، والتي أهمها الأكل والنوم، وكل هذه الغرائز تهدف إلى غاية واحدة هي بقاء حياة الإنسان على الأرض"¹.

وإن "غريزة" الجنس" قد تصنف في الدرجة الثانية بعد غريزة "حب البقاء" التي تحتل الدرجة الأولى في حياتنا... فمتى شبع الجائع -وهذه غريزة "حب البقاء"- ثارت فيه غريزة "الجنس" وطلبت إليه تلبيتها"².

نفس المنحى نحاه ياسين بوعلي معتبرا "المنفعة" (غريزة حب البقاء) سابقة على "المتعة" (غريزة الجنس)، لأن الإنسان يموت بغياب الأولى ويبقى حيا بالرغم من غياب الثانية.

إلا أنه لا استمرار للإنسان على الأرض بدون نشاط جنسي، فبقاء الفرد لا يغني عن بقاء خلفه والأجيال بعده.

يقول ياسين بوعلي:

"حاجات الإنسان هي في الأصل وفي البدء حيوانية، محورها البقاء بشقيه: الحفاظ على حياة الفرد الإنساني بطريق التغذية بما فيها الماء والهواء، واستمرار النوع البشري بطريق الجنس"³

2- فسيولوجيا النشاط الجنسي

1- من كتاب "كل شيء في الجنس"، جمع من عدة كتب وبحوث لكبار الأطباء وعلماء النفس في العالم، مكتبة شوقي، ص 3.

2- نفسه، ص 3.

3- ياسين بوعلي، ينابيع الثقافة ودورها في الصراع الطبقي، منشورات الملتقى، الطبعة الثانية، 2006، ص 5.

ليس هناك أي تفاوت فسيولوجي بين الرجل والمرأة على المستوى الجنسي،
هكذا تقول نوال السعداوي وتؤكد ما يلي:

- فالمرأة تثار كما يثار الرجل.
- ولها أعضاء تناسلية كالرجل.
- وتحتاج الجنس غريزيا كما يحتاجه.
- وتصاب بالبرود الجنسي مثلما يصاب هو بالضعف الجنسي.
- وتثار في مناطق بعينها مثله.
- وتمرض جنسيا كما يمرض.
- وتساهم في عملية الإخصاب مثله...

تستحضر نوال السعداوي كل هذا وغيره لتحرر الرجل من خوفه من المرأة، فتكون
الфизиولوجيا مدخلا له ليتخلص من الاضطرابات النفسية التي تؤثر على سلوكه
الجنسي.

تقول نوال السعداوي: "والسؤال الذي يجب أن يسأل الآن هو: لماذا يحدث هذا (أي
الخوف من جسد المرأة) للرجل أكثر مما يحدث للمرأة؟

وقد أجاب بعض العلماء على هذا السؤال إجابات علمية قاصرة منها أن الرجل
هو الطرف الإيجابي في الجنس وهو الذي يبدأ وهو الذي ينتصب وهو الذي يفعل
وعليه يقع عبء الفعل ومسؤوليته، أما المرأة فهي الطرف السلبي الذي
يستقبل عضو الرجل فقط، وهي لا تفعل شيئا ولا تنتصب ولا يقع عليها عبء
الفعل.

لكن هذه الإجابة قاصرة لأنها تثبت أن المرأة ليست طرفا سلبيا في الجنس وأنها إيجابية كالرجل، ولا بد أن يحدث لها انتصاب في البظر وإثارة كالرجل، وأن تصبح عضلاتها الجنسية قادرة على الممارسة الجنسية الكاملة حتى تصل إلى قمة اللذة (الأورجازم) كما يصل الرجل، وأن أي نقصان في كفاءتها الجنسية يسبب لها درجات متفاوتة من البرود الجنسي والذي يقابله الضعف الجنسي عند الرجل.

إذن يمكن القول إنه من الناحية البيولوجية والفسولوجية فإن المرأة كالرجل في حاجة دائمة إلى كفاءة جنسية معينة، وإلا تعرضت للإحساس بالنقص والبرود الجنسي⁴.

المرأة والرجل متساويان إذن في حاجتهما إلى "الكفاءة الجنسية"، وهو ما حاولت أن تؤكدته نوال السعداوي مبرزة ما يلي:

- العلاقة بين العضوي والنفسي:

لا يطرأ أي تحول على العضوين الجنسيين لكل من الرجل والمرأة (قضيبي الرجل، وبظر المرأة) إلا بعد إثارة، ولا تحدث أي إثارة إلا بتأثير عدة عوامل نفسية. فما يثار به الناس يختلف من فرد لآخر، وذلك حسب ما تم تخزينه في اللادشعور الخاص بكل فرد على حدة.

لا تهمنا هنا دراسة العوامل النفسية المؤثرة في النشاط الجنسي، بل الأهم هو معرفة علاقتها بما هو عضوي. فهي تؤثر فيه، ويؤثر فيها أيضا.

يثار الإنسان حسب ما هو مخزن في لا شعوره⁵، فتنتطلق الإشارات العصبية من المخ متجهة نحو الحبل الشوكي، ثم نحو القضيب أو البظر.⁶

تتم هذه العملية بشكل سليم، وكذلك تمر الممارسة الجنسية إذا كان الإنسان قادراً عليها. وبقدر ما يكون مستعداً لذلك، فإنه يكون أكثر قدرة على بلوغ "الذروة الجنسية" حيث الشبق والراحة النفسية المطلوبة.

هكذا يؤثر النفسي في العضوي، وهكذا يؤثر الثاني في الأول.

- الجهاز العضوي للنشاط الجنسي:

للوصول إلى علاقة جنسية سليمة، يكون الإنسان رجلاً أو امرأة في حاجة إلى: جهاز هرموني سليم، وجهاز عصبي سليم، ضخ دموي سليم، جهاز عضوي سليم، بروستات سليم (لا يعاني من الالتهاب)...⁷

فجسم الإنسان كل لا يتجزأ، وبالتالي فسلامة العلاقة الجنسية بين الرجل والمرأة من سلامة الجهاز العضوي ككل. وكلما اختلف عضو من هذا الجهاز، إلا وكان ذلك مؤثراً على تلك العلاقة.

كل هذا معتبر، ولكننا مطالبون بعده بتحديد الأعضاء التناسلية لكل من الرجل والمرأة.

5- سنناقش النشاط الجنسي من الناحية السيكلوجية لاحقاً.

6- الدكتور ياسر بدران، أستاذ جراحة المسالك البولية والضعف الجنسي.

7- نفسه.

إنها الأعضاء والأجزاء المعنية بالعلاقة الجنسية بشكل مباشر، وهي التي ستجد تفصيلها في الجدول أسفله⁸:

الأعضاء التناسلية للمرأة	الأعضاء التناسلية للرجل
1-المهبل: له فتحة في أسفل الجهاز، يتجه حتى عنق الرحم، بواسطة تخرج دماء الحيض، يستقبل القضيب عند الجماع، عن طريقه يخرج الطفل عند الولادة...	1-الخصيتان: تحتويان على السائل المنوي، وتوجدان داخل الصفن (على شكل كيس). 2-القنوات: ومنها القنوات الناقلتان اللتان تنقلان السائل المنوي من الخصيتين إلى الحويصلين.
2-الرحم: عضو أجوف مركزه في الحوض، تنمو فيه البويضة، تمتد من أعلاه قناة تدخل بواسطتها الحيوانات المنوية لتلقيح البويضة.	وقناة الإفراز التي بواسطتها يترك السائل المنوي الحويصلين بعد الإثارة. ثم مجرى البول وهو قناة تقذف بالسائل المنوي إلى الخارج.
3-الثديان: أعضاء متممة للجهاز التناسلي للمرأة، لها تأثير كبير في إثارة المرأة، عضوان مهمتها توفير التغذية للطفل...	3-الحويصلان: مرتبطتان بالقناتين الناقلتين، ويبقى فيهما السائل المنوي إلى أن يأتي موعد استعماله.
	4-القضيب:

8- هذا الجدول هو ترتيب لما وجدناه في كتاب "كل شيء في الجنس"، مرجع مذكور سابقاً، ص 11-12.

	<p>به أجسام تجوفية، به نسيج إسفنجي ينتفخ باندفاع الدم إليه، يحتوي على حشفة (قطعة لحمية) مغطاة بغلفة (ثنية من الجلد)...</p> <p>5-غدد:</p> <p>تفرز عدة سوائل من مهامها: "تسهيل إفراز السائل المنوي وقذفه إلى الخارج".</p>
--	---

لقد لاحظت أيها القارئ أن السائل المنوي لم يكن عبثاً، وأن البويضة لم تكن كذلك أيضاً. فلو كان الجنس متعة لا غاية منها غير المتعة؛ لما كان هذا الجهاز بكل هذا التعقيد.

ولكن الغاية هي أن يستمر النوع البشري، وأن يستمر عمل الإنسان على الأرض.

- إمكانية اختلال الكفاءة الجنسية:

جسم الإنسان مهدد بعدة أمراض جنسية، منها:

مرض فقدان المناعة المكتسبة، الهربس، التهاب مجرى البول الجنسي، السيلان، السفيلس أو الزهري، القرحة الرخوة، الورم البلغمي الحبيبي التناسلي، الورم الحبيبي المغبني، تآليل التناسل، المليساء المعدية، التهاب الكبد الفيروسي، فطريات وطفيليات الجهاز التناسلي...⁹

9- محمد علي البار، الأمراض الجنسية: أسبابها وعلاجها، دار المنارة، الطبعة الثانية، 1986.

كل هذه الأمراض تنتقل جنسيا، أي عبر الجهاز التناسلي، ولذلك سميت جنسية. وكلها تؤثر سلبا على كفاءة الإنسان الجنسية، فتجعله مهدداً لسلامة الآخرين بالأمراض التي يحملها إذا دخلوا معه في علاقة جنسية ما.

ليس هذا هو المقصود باختلال الكفاءة الجنسية فحسب، وليس هذا هو ما انتبعت إليه نوال السعداوي في كتابها المذكور.

ولكن الاختلال المقصود بشكل أساسي هو عدم قدرة الإنسان على ممارسة الجنس مع جنسه الآخر، وذلك عندما يصيبه الضعف الجنسي وفقدان السيطرة على نفسه أثناء الممارسة الجنسية.

إن اختلال الكفاءة الجنسية غالبا ما ينتج عن نوعين من الأسباب: عضوية أو نفسية.

فأما العضوية كأن يختل الجهاز الهرموني أو الجهاز العصبي أو أحد الأعضاء أو القنوات المسؤولة عن الضخ الدموي أو البروستات... إن اختلال أي عضو في الجهاز العضوي للنشاط الجنسي يهدد الكفاءة الجنسية للإنسان بالاختلال، وهذا ما يبقى مجهولا عند الكثيرين. وعوض أن يلجؤوا إلى الطب لإيجاد حل لمشاكلهم الصحية، يقصدون التفاسير الخرافية والتقليدية للتعويض عن نقص يحدونه في واقعهم المخيف.

وأما النفسية فمردها إلى ما يحمله الإنسان في لا شعوره من أفكار خاطئة تتحول إلى مخاوف عظيمة، وكذا ما يحتفظ به في لا شعوره من عقد ومركبات نقص واضطرابات نفسية مرهقة؛ فكثيرون هم الرجال الذين يخافون من جسد المرأة، وكثيرات هن النساء اللواتي تخفن من جسد الرجل.

وإن خوفاً من هذا النوع ليتحول عند كثير من الرجال إلى ضعف جنسي، كما يتحول عند كثير من النساء إلى برود جنسي.

هذا، وتبقى العلاقة بين النفسي والعضوي قائمة دائماً؛ فكل ضلال عن العلاج العضوي قد يدفع صاحبه إلى مزيد من الاضطراب والانهازم والتأويلات الخاطئة للأمراض العضوية البسيطة، وكل اضطراب نفسي قد يؤدي بحامله إلى فشل في الممارسة الجنسية واختلال في الكفاءة الضرورية لإتيانها.

3- سوسولوجيا النشاط الجنسي

الجنس بين المنفعة والمتعة:

في الأكل والشرب، تتحقق المنافع أكثر مما تتحقق المتع. وفي النشاط الجنسي، تتحقق المتع أكثر مما تتحقق المنافع. قد يعيش الإنسان طويلاً بلا متع، ولكنه لن يصبر قليلاً على فقد المنافع.

يقول بوعلي ياسين: "ثقافة الإنسان شيء نابع من حياته ومتطلباتها، وهي تؤثر بدورها على حياة الإنسان وعلاقاته. حاجات الإنسان هي في الأصل وفي البدء حيوانية، محورها البقاء بشقيه: الحفاظ على حياة الإنسان بطريقة التغذية، بما فيها الماء والهواء، واستمرار النوع البشري بطريقة الجنس. ثمه نقص دائم، يخلق قلقاً دائماً لسد هذه النقص الذي لا يزول نهائياً. من هذا النقص والقلق والعلاقة الجدلية بينهما تنشأ الثقافة والآداب والفنون".¹⁰

لقد جاء هذا الكلام في سياق تفسير بوعلي ياسين للثقافة، وليس هذا هو موضوع دراستنا هذه.

10- بوعلي ياسين، نفس المرجع السابق، ص 5-6.

إن كل ما يهمننا هنا هو أن نميز بين المنافع والمتع، وأن نكتشف بأن الجنس من هذه الأخيرة. وكما أن النقص يلحق المنافع، فهو يلحق المتع أيضا.

إن هذا النقص هو سبب كل المشاكل النفسية والصراعات الاجتماعية التي عاشتها وتعيشها البشرية إلى يوم الناس هذا، فلولاها لما كانت ثقافة ولا سياسة.

أليست الحاجة إلى المنافع هي أصل قيمة الخوف؟

أليست الحاجة إلى المتع هي أصل قيمة الحب؟

إن مجال البحث الذي نتحرك فيه هو الذي سيحكم على جوابنا منذ البداية. فما دمنا نبحث داخل التاريخ البشري (لا خارجه)، فلن نجد غير الحاجة أصلا لكل قيمة على الأرض.

أما إذا "تجاوزنا الكامن" (بتعبير عبد الوهاب المسيري) قليلا؛ فلن نجد غير أصل الأصول (الله) أصلا لكل حاجة وكل قيمة.

لن ننكر الغيب، ولكن فلنفسر التاريخ بالتاريخ أولا؛ فقد خاف الإنسان أولا من فنائه (على بقائه)، فبحث عن غذائه واجتمع لحماية نفسه من كل خطر داهم.

وبالإضافة إلى ذلك، فقد وجد نفسه ميلا إلى الأنثى (كما وجدت هذه نفسها ميالة إلى الذكر)، وذلك هو أول اكتشاف للحب لديه.

إن مشاعر الحب والخوف هذه هي التي خلقت عنده القابلية للتدين، فما التدين إلا تلبية لحاجة الإنسان الذي يتجاوز خوفه المستمر ويملاً فراغ الحب لديه ("النقص الذي لا ينتهي"، بتعبير بوعلي ياسين).

فهناك من قال: "الخوف والحب هما الأساس الرئيسي لعاطفة الدين، وإنهما ينفردان بأن جذورهما راسخة كل الرسوخ في النفس الإنسانية، وبأنهما يرتبطان

ارتباطا وثيقا بميول أولية أو غرائز، لا غنى عنها في استمرار النوع البشري: غريزة حفظ البقاء، وغريزة التناسل".¹¹

ليس كل هذا كلاما مفضولا، بل إن المقصود منه هو أن نثبت أصالة الجنس كغريزة إنسانية، كمتعة أصيلة ساهمت -بالإضافة إلى المنفعة- في استمرار الإنسان وتطوره كما أدى تنظيمها إلى تقدمه.

الجنس قبل ظهور الطبقات:

هل وجد الإنسان نفسه منتميا إلى طبقات وفئات اجتماعية مختلفة منذ أول يوم له على الأرض؟

ليس هذا ما يشهد به مورغان من خلال أبحاثه، وليس هذا ما صرح به فريدريك إنجلز في كتابه "أصل العائلة والملكية الخاصة والدولة".

ياسين بوعلي نفسه قال بقدوم النشاط الجنسي قدم الإنسان، ومعلوم أن للإنسان عصرا قديما هو عصر ما قبل الطبقات.

في هذا العصر ظهر الدين كظاهرة وجودية ما قبل طبقية، والصراع الاجتماعي غير الطبقي، والصراعات الجنسية -موضوع بحثنا هنا- اللاتطبقية...

يقول بوعلي ياسين: "إن إلحاق توتر العلاقات الجنسية بالعلاقات الطبقيّة خاطئ في منطلقه، وفيه استهانة بهذه القضية الهامة جدا بالنسبة للتنظيم الاجتماعي وللمستقبل البشري".¹²

11-المستشرق جيب والدكتور عادل العوا، علم الأديان وبنية الفكر الإسلامي، منشورات عويدات، الطبعة الأولى، 1977، ص 60.

12-بوعلي ياسين، نفس المرجع السابق، ص 13.

يرد بوعلي هنا على كل ماركسي لا يعترف بشيء اسمه "المجتمع الما قبل طبقي"، فلا يعرف من التاريخ إلا "تاريخ الصراع الطبقي".

نعم، "فالتاريخ هو تاريخ الصراع الطبقي" (كما يقول كارل ماركس)، ولكن في المجتمع الطبقي وليس في غيره.

فهل يعني هذا عدم وجود أي علاقة بين النشاط الجنسي والواقع الطبقي؟

لا ثم لا. فالجنس سابق على الطبقة، ولكنها تؤثر فيه بعد ظهورها.

هكذا عبر بوعلي قائلاً: "العلاقة بين الجنسين سابقة على العلاقات الطبقيّة، ثم متأثرة بها".¹³

بقي لنا أن نطرح على بوعلي سؤال واحد في هذا الإطار، فما هي الأسباب التي جعلته يقول بأسبقية العلاقة بين الجنسين على العلاقات الطبقيّة؟

من خلال قراءتنا لكتاب بوعلي، يمكن أن نحصر هذه الأسباب فيما يلي:

- "الانجذاب بين أفراد الجنسين والتناوب بين المعسكرين" الطبقيين.

- اختلاف أسباب الصراع بين الجنسين عن أسباب الصراع الطبقي.

- دلالة الأساطير القديمة على أسبقية الصراع الجنساني على الصراع الطبقي.

- "كثرة الخلاف حول الصراع الجنسانيين المتفقين في مواقفهم الطبقيّة، وكثرة الاتفاق حوله بين المختلفين في مواقفهم الطبقيّة" ¹⁴...

الجنس وصراع الطبقات:

13-نفسه، نفس الصفحة.

14-نفسه، ص 13-14-15.

سيتفاجأ كثيرون إذا علموا أن هناك علاقة ضرورية بين الفئة الاجتماعية التي ينتمي إليها الإنسان ونشاطه الجنسي، وسيتفاجؤون أكثر إذا علموا أن المنحرف جنسيا قابل للاستغلال الطبقي وأن المستغل طبقيا مهدد بالانحراف الجنسي. ولكن دعونا نطرح السؤالين التاليين:

كيف تحدد الطبقة الاجتماعية النشاط الجنسي لمن ينتمي إليها؟

وكيف يكون المستغل طبقيا منحرفا جنسيا؟

- فيما يتعلق بالجواب على السؤال الأول:

قبل أن يسود الذكور (المجتمع الذكوري)، كانت النساء هن السائدات (المجتمع الأمومي). وبناء على سيادة النساء كانت تسود أنماط متعددة من النشاط الجنسي، وبناء على سيادة الذكور سادت وتسود إلى اليوم أنماط أخرى مختلفة عن تلك السابقة (التي كانت سائدة في المجتمع الأمومي).

هذا، وليست أنماط النشاط الجنسي السائدة في المجتمع الذكوري واحدة؛ فهي تختلف من طبقة إلى طبقة، ومن نمط إنتاج إلى آخر.

يقول كريس هارمان: "لم يكن أصل العائلة يدور، بطبيعة الحال، حول ظهور الطبقات والدولة فحسب. لقد كان يدور أيضا حول أصل اضطهاد النساء. وتتمثل وجهة نظر رئيسية في أن النساء لم يكن خاضعات للرجال حتى ظهور الطبقات"¹⁵.

15-كريس هارمان، إنجلس وأصل المجتمع البشري، ترجمة هند خليل كلفت، المركز القومي للترجمة، الطبعة الأولى، 2012، ص 99.

ظهور الطبقات إذن هو الذي أخضع النساء للرجال، ومعه أيضا ظهرت أنماط أخرى من النشاط الجنسي؛ فبعد أن كانت المرأة تملك حق ممارسة الجنس مع زوجها ومع الشباب غير المتزوجين من عشيرتها، ستصبح ملكا للرجل في "الأسرة البطريكية" ثم في "العائلة الأحادية" ثم في "شكل العائلة البورجوازية".
بخصوص هذا الانتقال (الذي لم يكن حبيا، وإنما بالقوة)¹⁶، يقول إنجلس:

"أول تناحر طبقي ظهر في التاريخ يتزامن مع تطور التناحر بين الرجل والمرأة في الزواج الأحادي، وأول اضطهاد طبقي يتزامن مع اضطهاد نوع الذكر لنوع الأنثى"¹⁷.

"الزواج الأحادي" هو الزواج الذي تكون فيه عدة نساء ملكا لرجل واحد، وهو عينه الزواج الذي ظهر مباشرة بعد اضطهاد الذكر للأنثى ونزع سلطاتها منها واستحواده عليها بالقوة. "الأسرة البطريكية" و"العائلة الأحادية" و"العائلة البورجوازية"... كلها أشكال للأسر التي عاش فيها الإنسان في زمن الصراع الطبقي، والتي نتجت عن التناحر الذي حصل بين الرجل والمرأة في الزواج الأحادي.

يقول هارمان: "المزيد من تطور وسائل الإنتاج جلب معه المزيد من التغييرات في شكل العائلة وطابع اضطهاد النساء. وقد زعم (يقصد إنجلس) أن هذا قد حدث

16-راجع: "ينابيع الثقافة"، بوعلبي ياسين.

17-فريدريك إنجلس، أصل العائلة والملكية الخاصة والدولة. من الكتاب المذكور سابقا لكريسهارمان، ص 99.

عندما حل محل نمط الإنتاج العبودي القديم، النظام الإقطاعي، الذي كان، وفقا له، مصحوبا بإحلال "العائلة الأحادية" محل "الأسرة الحيازية البطريركية"¹⁸. ويقول إنجلس: "الزواج الأحادي الجديد... غلف سيطرة الرجال بأشكال ألطف وسمح للنساء بأن يشغلن، على الأقل فيما يتعلق بالمظاهر الخارجية، مركزا أكثر حرية وأكثر احتراما من العصور القديمة"¹⁹.

ويقول هارمان أيضا: "بعد أن جرى القضاء على العائلة تقريبا بين الطبقة العاملة في المراحل المبكرة من الثورة الصناعية، سعت الرأسمالية إلى فرض شكل من العائلة البورجوازية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر باعتبارها الوسيلة الوحيدة لتأمين تنشئة الجيل الجديد من العمال. ومن هنا محاولات استعمال القانون والوعظ الديني للحد من مشاركة النساء في قوة العمل"²⁰. لم تتغير أنماط النشاط الجنسي من مجتمع الأمومة إلى مجتمع الذكورة فحسب، ولكن الانتقال من نمط إنتاج إلى آخر في المجتمع الطبقي يؤدي إلى تغييرها أيضا.

هذا ما حدث حتى كادت العائلة البروليتارية تنقرض، بسبب حاجة المرأة إلى العمل في المصنع وعدم قدرتها على التوفيق بينه وبين تبعات الإنجاب. فهل يستطيع عاقل، إذن، أن يرفض تأثير العلاقات الطبقية على نمط النشاط الجنسي؟

18-كريس هارمان، نفس المرجع السابق، ص 117.

19-فريدريك إنجلس، أصل العائلة والملكية الخاصة والدولة. من كتاب كريس هارمان المذكور سابقا، ص 117.

20-كريس هارمان، نفس المرجع السابق، ص 120.

وهل كان التطور البشري ظالما للمرأة بظهور الأسرة الذكورية؟
لقد حاولنا أن نجيب عن السؤال الأول بما نظنه كافيا أعلاه، أما الإجابة على
السؤال الثاني فهي جدلية.

لم يكن الإنسان ليتقدم خطوة إلى الأمام لو لم ينظم الجنس، ولكن هذا التنظيم
-لسوء الحظ- كان طبقيًا ظالما للمرأة.

المطلوب اليوم هو أن نحافظ على الأسرة، ونحرر المرأة في نفس الوقت.
أما توجيه الرأي العام إلى تحرير المرأة دون الحفاظ على الأسرة، فهو مؤذن
بالفوضى وهدم كل ما بناه الإنسان.

ليس هناك أي تحرير للمرأة دون تحرير للإنسانية جمعاء، وليس هناك أي مقارنة
مجدية لمشاكل النساء غير المقارنة الاجتماعية التاريخية.

- فيما يتعلق بالجواب على السؤال الثاني:

لقد حاولنا في الجواب أعلاه أن نبين كيفية تأثير العلاقات الاجتماعية على
النشاط الجنسي للإنسان، غير أن هناك وجها آخر للقضية. فالنشاط الجنسي
يختلف من طبقة إلى طبقة في نفس نمط الإنتاج، كما أن الانحرافات الجنسية
يمكن أن تكون ذات مصدر طبقي.

في المجتمع الواحد، قد يختلف النشاط الجنسي بين مختلف الطبقات. وهو ما
رصدته بعض الأبحاث في أحد المجتمعات الغربية كالاتي:

- البورجوازية الكبيرة: الزواج المتأخر، وانتشار العادة السرية، مما يطور المخيلة
الجنسية لدى شباب هذه الطبقة ويجعلهم قادرين على الاستمتاع بالممارسة
الجنسية أكثر من غيرهم.

- الطبقة العمالية: الجنس الروتيني الممل، ما يحرم العمال من المتعة الجنسية ومن بلوغ الشبق الجنسي.

- الطبقة الوسطى: حيث وجد أن أغلب الذين يدافعون عن المثلية الجنسية ينتمون إلى الطبقة الوسطى، فتلون الميل من تلون الموقع الاجتماعي.²¹

ليس المنتمي إلى الطبقة الوسطى هو المنحرف الوحيد الذي يدافع عن انحرافه، بل إن كل مستغل اجتماعيا قابل لأن يكون منحرفا جنسيا بقوة؛ فقد كان الانحراف الجنسي منتشرًا بكثرة في صفوف العبيد المستغلين لدى الأسياد، وقد كانت تفرغ طاقة العمال الجنسية بشكل محرف (بوضع صورة امرأة عارية أمام العمال بالقرب من آلة الإنتاج)، في القرنين 17 م و18 م، حتى يستفاد منها في إنتاج فائض القيمة للرأسماليين.

ولهذا قال عبد الصمد بلكبير: "لو شبع الإنسان جنسيا، لما قبل الظلم".²²

4- سيكولوجيا النشاط الجنسي

الجنس واللاشعور:

إن أي إنسان على وجه الأرض خاضع حسب ألفريد آدلر لثلاث دوافع اضطرارية هي:

1- ضرورة العيش على كوكب الأرض ذي الموارد الطبيعية المحدودة.

21- راجع "النشاط الجنسي وصراع الطبقات"، لرايموترايش.

22- المداخلة الثانية لعبد الصمد بلكبير، في مائدة "منتدى إحياء للتنمية الأخلاقية والفكرية"، في موضوع: "السلوك الجنسي البشري واستهدافات الغرب الرأسمالي: مقاربات متعددة".

2- ضرورة العيش مع الآخرين، فالإنسان في حاجة دائماً إلى الجماعة والاجتماع.

3- ضرورة الجواب على سؤال العلاقة بالجنس الآخر من قبل الرجل أو المرأة.

هي ثلاثة مشاكل: وظيفية، واجتماعية، وجنسية.²³

إن أي معالجة تطالب الإنسان بالالتزام بعيداً عن الوعي بهذه الضرورات الثلاث وأخذها بعين الاعتبار؛ ما هي إلا معالجة حالمة ومتعالية قد تصيب وقد تخطئ، وهي نادراً ما تصيب.

فحقيقة الإنسان هي أنه لا يعيش إلا باحثاً عن وظيفة تمكنه من العيش حتى لا يموت جوعاً، وكلما حقق الكفاية، سعى إلى أن يعيش الرفاهية.

وفي كل ذلك يجد الإنسان نفسه في حاجة إلى خدمات الآخرين، فيعطي ليأخذ، ويساعد ليساعد.

هذا، ولا نرى الإنسان منذ أن وجد إلا باحثاً عن علاقة مع جنسه الآخر. فلولا ذلك، لقطع النسل منذ زمن بعيد.

لسنا مهتمين هنا بكل الضرورات المذكورة، فما يهمنا هو اكتشاف العلاقة بالجنس الآخر كضرورة لا مفر منها لكل إنسان سوي.

يعتبر آدلر أن أسلوب الحياة ونمط العيش هما ما يحدد مشاعر الفرد منذ السنوات الخمس الأولى، ولا يبحث عن حل لما يعترض الإنسان من مشاكل في الوعي باللادوعي، وإنما في تغيير أسلوب الحياة. "فالعقل (عنده) وحدة واحدة قائمة بذاتها، وأسلوب الحياة يكون واضحاً في كل تعبيرات العقل، وكل مشاعر الفرد

23- ألفريد آدلر، معنى الحياة، ترجمة عادل نجيب بشرى، المجلس الأعلى للثقافة، الطبعة الأولى، 2005.

وأفكاره يجب أن تكون متسقة مع أسلوب الحياة²⁴. فالعقل هنا واحد، وأسلوب الحياة هو الذي يحكم تعبيراته.

يرى آدler النفس كعقل ظاهر يتفاعل مع أسلوب حياة صاحبه، ويفسّر وفق ذلك الأسلوب. ولذلك فهو ينظر إلى مشاكل الإنسان الجنسية كاضطرابات لا تحتاج إلا إلى تغيير أسلوب الحياة. ذلك الأسلوب الذي بتغييره ستنتهي كل الاضطرابات شيئاً فشيئاً.

أما فرويد فهو لم يقف عند هذا الحد، ولكنه بحث عن التفسير في اللاشعور (لأنه يرى النفس كجهاز يتكون من الشعور واللاشعور).

وبحث عن جذور كل اضطراب في لواعي الإنسان بدرجة أولى، وبالتالي في المشاكل التي طبعت إحدى المراحل النفسية الجنسية التي مر منها.

فما هي هذه المراحل النفسية الجنسية؟

إنها خمسة أطوار، نذكرها تباعاً كالتالي:

- الطور الفموي (من الولادة إلى حدود سنة):

"في هذا الطور لا يكون النشاط الجنسي منفصلاً عن تناول الطعام، إذ لا يكون تمايز العمليتين قد ظهر للعيان بعد... ويمكن أن نعد المص رسابة من هذا الطور التنظيمي"²⁵.

- الطور الشرجي (ما بين سنة وسنتين):

24-نفسه.

25-سيغموند فرويد، ثلاثة مباحث في نظرية الجنس، ترجمة جورج طرابيشي، دار الطليعة، الطبعة الثانية، 1983، ص 72.

"وفيه (هذا الطور) يتجلى بوضوح التعارض الذي يستمر مدى الحياة الجنسية، غير أن القطبين المتعارضين ليسا بعد المذكر والمؤنث، وإنما الضدان: الموجب والسالب. ويبدو أن العنصر الموجب يتألف من غريزة السيطرة المرتبطة هي نفسها بالجهاز العضلي، أما العضو الذي هدفه الجنسي سالب فيتمثل بالغشاء المخاطي المعوي الشهوي".²⁶

- الطور الودري (ما بين سنتين وخمس سنوات):

في هذا الطور، تظهر عقدة "أوديب" لدى الذكور وعقدة "ألكترا" لدى الإناث. "ويتميز (هذا الطور) بالطبيعة الطفلية للأهداف الجنسية".²⁷ فيصبو الذكر إلى اكتساب صفات أبيه حتى يحصل على حب أمه، وتصبو الأنثى إلى اكتساب صفات أمها حتى تحصل على حب أبيها. ولا يعني هذا استمرار عقدة "أوديب" وعقدة "ألكترا"، بل إنهما تأفلان مع فقدان الذكر والأنثى لأمليهما المذكورين أعلاه.

يقول فرويد: "تكشف عقدة أوديب أكثر فأكثر عن أهميتها كظاهرة مركزية للمرحلة الجنسية في الطفولة الأولى. ولا تلبث بعد ذلك أن تأفل، فتزح تحت نير الكبت كما نقول ويعقبها طور الكمون. ولكننا لا ندري بعد بوضوح ما السبب في زوالها، وتفيدنا التحاليل فيما يبدو بأن زوالها يأتي نتيجة لمعاناة خيبات مؤلمة".²⁸

26- نفسه، ص 72.

27- نفسه، ص 74.

28- سيغموند فرويد، الحياة الجنسية، ترجمة جورج طرابيشي، دار الطليعة، الطبعة

الثالثة، 1999، ص 165.

والمقصود بالخيبات المؤلمة - حسب فرويد - هو: فقدان البنت أمل الحصول على حب أبيها، وفقدان الابن أمل الحصول على حب أمه.

ومن أسباب تلك الخيبات، ظهور أخ جديد أو أخت جديدة.

وحسب فرويد، فإن الاضطرابات التي يعاني منه الطفل في هذه المرحلة هي التي تتحكم في ميله فيما بعد؛ فإما أن يميل إلى الأنثى بإفراط، وإما أن يعزف عنها بإفراط.

- طور الكمون (ما بين خمس سنوات وسن البلوغ):

وهذا هو طور "توقف ونكوص سمات الاختيار الجنسي".²⁹

وبالرغم مما يقال عن هذا الطور من هدوء وغياب لأي تحول واستغناء عن الجنس بأنشطة أخرى، فإن له خطورته التي لا يجب إغفالها.

يقول فرويد: "إن وقوع اختيار الموضوع على دفعتين، أي بعبارة أخرى-وجود مرحلة كمون جنسي، أمر له خطورته الجسمية في نشوء اضطرابات الحالة النهائية. فاختيار الطفل يستمر في إتيان مفاعيله، سواء أبقت على شدتها الأولى أم عرفت في أثناء البلوغ إحياء جديدا. وبنتيجة الكبت الذي يقع بين الطورين، لا يعود موضوع الاختيار قابلا للاستخدام".³⁰

- المرحلة التناسلية (ما بين سن البلوغ وسن النضج):

29-سيغموند فرويد، ثلاثة مباحث في نظرية الجنس، نفس المرجع السابق، ص 74.

30-نفسه، ص 74.

في هذا الطور "يتحدد الشكل النهائي الذي ستأخذه الحياة الجنسية" (بتعبير فرويد)، وتأخذ الغريزة الجنسية طريقها إلى البروز، "وتضطلع المناطق التناسلية بدور الزعامة" (بتعبير فرويد)؛ فيتوجه الذكر البالغ إلى الأنثى البالغة، والعكس.

ملحوظة:

-يسمي فرويد المرحلة الفموية والمرحلة الشرجية مرحلتين قبتناسليتين، وهما مرحلتان "لا تضطلع فيهما المناطق التناسلية بعد بدور الزعامة".³¹

- كل اضطراب في الانتقال من طور إلى طور، يخلف اضطرابا في نفسية الفرد عند بلوغه "الطور التناسلي".

وكل اضطراب لحق الطفل في طور من الأطوار الأربعة الأولى، يبرز بشكل أو بآخر في حياته بعد بلوغه.

- مما يعاب على فرويد أنه اهتم بتفسير النشاط الجنسي سيكولوجيا وأحيانا فيسيولوجيا دون أن يهتم -ولو قليلا- بالظروف الاجتماعية التي تؤثر فيه، وفي ذلك إهمال للشروط التاريخية وقول بخلود نوع ما من النشاط الجنسي البشري.³²

ومما يعاب عليه كذلك أنه تطرف في تحديد مكونات اللاشعور، فاقصر على الدوافع الجنسية دون غيرها من الدوافع المصلحية الأخرى.³³

لا يسمح المجال هنا بالحديث عما يعاب على فرويد، فلنترك ذلك إلى وقت لاحق إذن.

31-نفسه، ص 72.

32-راجع: "الإنسان الاشتراكي"، لإسحاق دويتشر.

33-راجع: "ثم صار المخ عقلا"، لعمر شريف.

الجنس في التحليل النفسي:

تتعدد الخلاصات التي يخلص إليها التحليل النفسي كلما تناول النشاط الجنسي البشري بالدراسة، فلا يكاد المرء يصل مع رواد هذه المدرسة إلى حقائق ثابتة.

وبين فرضيات كثيرة، يستبطن التحليل: تسفيه النشاط الجنسي تارة، والدعوة إلى التسامي عليه تارة، والتشجيع على الغريزية تارة أخرى...

فلنضرب مثالا على ذلك، وبه نكتفي؛ وليكن المثال في "تسفيه النشاط الجنسي"، حيث تسفيه: حاجة المرأة إلى الرجل، وميل هذا إلى الأنثى، والتشكيك في كون الممارسة الجنسية طبيعية خالصة.

يقول عبد المولى البستاني³⁴: "مكر المرأة الهستيرية، وخبثها ودهاؤها، وقدرتها على التمثيل العاطفي أمام الرجل... في التحليل النفسي، يسعى على مستوى اللاوعي، إلى السيطرة على الرجل، وإخضاعه وإذلاله وتدمير قضيبه الجنسي، الذي يشكل موضوع نقصها، ورغبتها الطفولية في الحصول على القضيب الذكوري.

الغيرة والحسد القضيبى اللاواعيين عند المرأة الهستيرية، اتجاه الرجل، يجعلها تكره الرجل على المستوى اللاوعي، وتميل إلى تدمير قضيبه الذكوري رمزيا ودلاليا".

ويقول أيضا: "المرأة في المتخيل الذكوري كائن بدون شهوة، أو خيال جنسي، فهي مرآة للإسقاطات الجنسية الذكورية فقط، حيث يتم تشييء المرأة، وسلبها مما تريد، وتشتهي وتتخيل في حياتها الجنسية.

صورة المرأة في المتخيل الجنسي الذكوري مفارقة جدا للواقع النفسي، والجنسي الحقيقي للمرأة، ولهذا السبب لا تعرف العقلية الذكورية شيئاً عن الحياة الجنسية للمرأة.

في هذا السياق يقول جاك لاكان بأنه لا توجد المرأة، حيث إن المرأة تدخل ضمن عرض عصابي للذكر".

ونجده يقول مرة أخرى: "ليس هناك علاقات جنسية طبيعية، عند الإنسان، بل هناك انجذابات خيالية بين الجنسين، أي أن كل شريك في العلاقة الجنسية تجذبه خيالاته، وأوهامه الجنسية الطفولية، ولا يجذبه الشريك الآخر.

فالعلاقة الجنسية من خلال هذا المنظور أشبه بالاستمناء في حضور الجنس الآخر، أو الشريك الجنسي".

إننا لا نرفض هذه التحليلات، ولا نقبلها بغير استحضار القدر اللازم من النسبية. ولكن الذي نخاف منه هو أن تعتبر كل فرضية حقيقة لا شك فيها، فتضيع مصالح وتنهار مجتمعات.

التفكيك لا ينبغي أن تحده حدود لذوي الاختصاص، ولكن الناس لا يحتاجون منه إلا ما هم قادرون على استيعابه والاستفادة منه.

المحلل النفسي ينساق مع أدواته التحليلية إلى آخر نقطة من قدرته على التحليل، ويهتم بمعالجة مرضاه أكثر من أي شيء آخر. فيغفل خطورة التفكيك على من لم يستعد له بعد، ويسعى إلى اللحاق بمن فاتته تاريخياً دون اعتبار للخصوصيات والمسارات المختلفة.

من المقبول أن يعالج المرضى بدواء لم يعلموا مكونات صنعه وكيفية سريانه في البدن، ولكن المرفوض هو أن يزهد المريض في قيمة الدواء، فيزهد في صحته إلى أن يوضع في قبره وهو واهم.³⁵

التسامي:

كثيرون يتكلمون عن "تسامي" فرويد، أو بالأحرى عن دعوته للتسامي على الجنس.

ومن هؤلاء ناقدون يعتبرون ذلك مدخلا من مداخل المثلية والشذوذ، ومؤيدون فرحوا بدعوة فرويد إلى العفاف والزهد في الشهوات.

يلجأ الأولون إلى نقد فرويد بعلم النفس المعاصر، إذ رفض هذا الأخير "التسامي" كإمكانية يتحقق معها السواء الجنسي للإنسان.

أما الذين يلونهم فينصرون أدلوجتهم على لسان عدوهم اللدود، وينسون أن الشهوات زينت للناس بنص القرآن الكريم.

من الفريق الأول، نجد نوال السعداوي التي عبرت عن ذلك صراحة في كتابها "الرجل والجنس".

وما كان منها إلا أن فسرت الحدود الفكرية والإبداعية لبعض العباقرة بانحرافهم الجنسي، ودعت إلى عدم اتباع فرويد في قوله.

فالتسامي غير ممكن، وفرويد أخطأ في القول بإمكانيته.

وفي نفس السياق، طرحتُ سؤالاً على أحد المحللين النفسانيين (عبد المولى البستاني):

"هل تقولون بالتسامي عند فرويد؟ وهل هو ممكن؟ لقد قرأت عند نوال السعداوي أن علم النفس المعاصر نقض التسامي الفرويدي، فهل هذا صحيح؟" فأجابني قائلاً:

"التسامي، أو القبول بالمنع، والقبول بعدم التفكير في الموضوع الممنوع، هو الذي أعطى الحضارة والمدنية والعقد الاجتماعي، وهذا لا يستطيع لا علم النفس المعاصر ولا الأنثروبولوجيا المعاصرة أن ينفياه.

يعني أن انتقال الإنسان من الحياة الطبيعية الحيوانية إلى الحياة الاجتماعية والحضارة والمدنية قام على مبدأ المنع، والقبول بعدم التفكير في الموضوع الممنوع، وهذا المبدأ هو ما يطلق عليه في التحليل النفسي بالتسامي، والطفل إذا لم يقبل المنع، أي إذا رفض التسامي فهو سيسقط في العصاب أو الذهان. وهذا لا يستطيع لا نوال السعداوي ولا مهرج آخر أن ينفياه".

إن التسامي بمعنى المنع المؤقت، أو بمعنى تنظيم الجنس وضبطه؛ هو المقبول والممكن. وهو ما نظن عبد المولى البستاني يقصده بقوله، وهو نفس ما قال به فرويد.

إن هذا الأخير ليس واعظاً يدعو الناس إلى الامتناع، ولكنه يفسر الظواهر السيكولوجية باجتهاده وحسب المعطيات المتوفرة لديه.

إن الرافضين لتسامي فرويد لم يفهموه، وإن مستثمريه إيديولوجيا ليسوا بتلك الكفاءة العلمية لفهمه أيضاً.

حقيقة، إننا نجد فرويد يقول:

"تبين لنا ملاحظة الحياة اليومية للأشخاص أن لديهم القدرة على توجيه جزء محسوس من قواهم الدافعة الجنسية نحو أنواع نشاطهم المهنية أو العلمية. والباعث الجنسي معين على أداء مثل هذه المساعدات لأنه منح القدرة على الإعلاء، أعني أن له القدرة على تحويل أقرب أهدافه إلى أهداف أخرى ذات قيمة أسمي، أهداف ليست ذات طبيعة جنسية."³⁶

ولكن، هل هذا يصدق على الجميع؟

إن الأمر ليس بهذه البساطة، ولذلك قال فرويد:

"فيبدو أن أشد النقاط جوهرية في شخصيته (أي شخصية ليوناردو دافينتشي)، وسر هذه الشخصية يكمن في حقيقة معينة هي أنه بعد أن استفاد من النشاط الطفلي في خدمة المتعة الجنسية، قد أصبح قادرا على إعلاء الجزء الأكبر من اللبيدو عنده إلى الدافع للبحث. لكن لنكن على يقين من أنه ليس من السهل إثبات هذا التصور. فلكي نفعل ذلك ينبغي أن يكون لدينا تبصر بالتطور النفسي لسنوات طفولته الأولى، ويبدو من الحمق أن نأمل في العثور على مثل هذه المعلومات، حين تكون التقارير المتصلة بحياته قليلة جدا وغير وثيقة تماما -وفضلا عن ذلك حين نتناول المعلومات التي يخرجها أشخاص من جيلنا من اهتمام المراقب."³⁷

36- سيغموند فرويد، التحليل النفسي والفن: دافينتشي-دوستويفسكي، ترجمة سمير

كرم، دار الطليعة، الطبعة الأولى، 1975، ص 21-22.

37- نفسه، ص 25.

كل ما كتبه فرويد في هذه القضية، هو مجرد محاولة لا تغض الطرف عن قلة معطياتها ونسبيتها.

ناهيك عن أن فرويد لم ينف مثلية دافينتشي مطلقا، ولكنه فقط حاول البحث عن أبواب أخرى لتفسير سلوكه واعتزاله النساء غير المثلية.

هذا، ولا نزن فرويد يقصد إلا ذلك "التسامي" الذي أنتج الحضارة الإنسانية، وهو "التسامي" المؤقت أو الجزئي.

وهنا يمتنع الإنسان عن الجنس مؤقتا ليتفرغ لأعمال أكثر أهمية، أو يمتنع عن أنماط منه دون أخرى. بهذا استمر الإنسان، وبهذا يسير نحو نضجه ويرتقي في التاريخ.

وهذا ما نزن فاطمة المرنيسي قصدته بقولها:

"لقد أضاف فرويد عنصرا جديدا إلى الثقافة الغربية المعاصرة حين اعترف بأن الجنس هو أساس الحضارة (في حالة تساميه بالطبع)".³⁸

الانحراف الجنسي:

ما الانحراف الجنسي؟

يجيب فرويد: "هو تفوق الغريزة الجنسية على بعض المقاومات (الحياء، القرف، الرعب، الألم...)، لتأتي أفعال مفارقة للمألوف (لعق البراز، اغتصاب الجثث...)"³⁹.

38- فاطمة المرنيسي، ما وراء الحجاب: الجنس كهندسة اجتماعية، ترجمة فاطمة الزهراء أزرويل، المركز الثقافي العربي، الطبعة الرابعة، 2005، ص 22.

39- سيغموند فرويد، ثلاثة مباحث في نظرية الجنس، نفس المرجع السابق، ص 37.

آن الأوان ليجيبنا أولئك الذين ينفون وجود أي انحراف جنسي:

فهل لعق البراز من السواء؟

وهل اغتصاب الجثث أمر عادي؟

هذا ما يرفضه فرويد الذي مهما أقر بسيادة الغريزة الجنسية على اللاشعور، لا نراه داعياً إلا إلى تجاوزها (الوعي باللادوعي، من الوعي بالضرورات).

فالانحراف الجنسي يظهر بمجرد أن تتفوق الغريزة الجنسية على المقاومات الواعية، وهو ما لا يجب أن يقع.

إن الحقيقة التي لا يجب إغفالها هي أن الانحراف الجنسي ظاهرة لا ينجو منها أحد من الناس؛ إذ ليس هناك سواء كلي.

ولكن الانحراف انحرافان: انحراف لا يتجاوز "الحياة الجنسية السوية"، وآخر يتجاوزها.

يقول فرويد: "ما من فرد سوي إلا ويوجد لديه عنصر يمكن وصفه بأنه انحرافي يضاف إلى الهدف الجنسي السوي".

ويقول أيضاً: "فحين لا يكتفي الانحراف بأن يظهر إلى جانب الحياة الجنسية السوية (من حيث الهدف والموضوع)، وبقدر ما تكون الظروف مواتية له وغير مواتية لها، ينحى الحياة الجنسية السوية ويحل محلها في الظروف جميعاً".⁴⁰

يظهر الانحراف الجنسي إلى جانب الحياة الجنسية السوية، وهذا هو المقصود -على الأرجح- بالسواء الجنسي.

ولكنه عندما ينحى الحياة الجنسية السوية يكون ناتجا عن أحد أمرين: إما انحراف جنسي مكتسب، وإما انحراف جنسي طبيعي.

ربما هذا ما قصده علي الوردي بقوله: "إن الانحراف لا يمكن التخلص منه في أي مجتمع مهما كان".

يقول الأستاذ هافلوك ألس المختص بالأبحاث الجنسية: "إن هناك اثنين بالمئة من الناس مصابون بالانحراف الجنسي طبيعة لا اكتساباً".⁴¹

قد نصل علمياً إلى ما وصل إليه علي الوردي، ولكن ذلك لا يعني التطبيع مع الانحراف والشذوذ الجنسيين.

سنلتمس الأعذار، ولكننا لن نتردد ولو للحظة واحدة في حماية المجتمع من التفكك والدولة من الانهيار.

أليس الوردي نفسه هو من جعل معاقبة المجرم شراً لا بد منه؟

أليس هو نفسه من نفى عنه المسؤولية وأجاز في حقه السجن رغم ذلك؟⁴²

من أسباب الشذوذ ما هو طبيعي إذن، فما هي أسبابه التي تجعله مكتسباً؟

إن أهم الأسباب التي تجعله مكتسباً هو تحريم الميل إلى النساء والتمادي في إخفائهن عن الرجال، وذلك باسم تعاليم الدين ونصائح الوعاظ والزهاد.

والحقيقة أن الإسلام لا يحرم الميل إلى النساء، بل ينظمه ويضبطه فقط.

41-علي الوردي، مهزلة العقل البشري، ص 12.

42-راجع "خوارق اللاشعور"، علي الوردي.

لا رهبانية في الإسلام، وقد زين للناس حب الشهوات من النساء، وقد كان الرسول العظيم صلى الله عليه وسلم يتزوج النساء ويعجب بهن (مارية القبطية)...

يقول علي الوردي: "ينتشر اللواط أيضا بين الرهبان الذي ينقطعون لعبادة ربهم في الأديرة المنعزلة. وهو ينتشر كذلك بين رجال الدين الذين يعيشون في مراكز دينية تتحجب فيها المرأة أو يقل وجودها. وقد نجت بعض المراكز الدينية في إيران من هذه العادة لشيوع زواج المتعة فيها، فرجل الدين هناك يشبع شهوته عن طريق المتعة، وبذلك يقل تطلعه نحو الغلمان"⁴³.

ويقول أيضا: "شيوع الغزل المذكر في شعر المتصوفة لم يكن كله ناتجا عن نزعتهم العرفانية، فربما كان شذوذهم العذري من أسباب ذلك، والله أعلم"⁴⁴.

يحل زواج المتعة مشاكل الطلاب في إيران، ولكنه ليس الحل الأمثل؛ فزواج بغير تأييد، يهدد الأسرة ويقف في وجه استراتيجية "تكاثر سواد الأمة".

وليس "زواج المتعة" هو موضوعنا هنا، بل هو البحث فيما يجعل الشذوذ ينتشر بكثرة في أديرة المنعزلين عن الحياة وبين البحارة والسجناء...

إن اعتزال النساء يعد سببا من الأسباب التي تؤدي إلى الانحراف الجنسي، وإن معاكسة الطبيعة (الفطرة) هو مما يؤدي إلى توجيه الميل وجهة خاطئة.

هذا سبب من الأسباب فقط، وإلا فالانحراف الجنسي لا زال في حاجة إلى المزيد من البحث والدراسة.

43-علي الوردي، مهزلة العقل البشري، ص 14.

44-علي الوردي، أسطورة الأدب الرفيع، ص 78.

يقول علي الوردي: "وخلصة الأمر: إن الانحراف الجنسي ظاهرة اجتماعية معقدة تتدخل فيها عوامل شتى. وليس من السهل أن نضع لها قانونا عاما."⁴⁵

5- الجنس بين السر والعلن: الخطأ وارد والقيود لازمة

لسنا من الملائكة، ولا من الشياطين؛ فلماذا كل هذا التداعي على الشيوخ والمناضلين والمصلحين كلما سقطوا في هفوة؟

إن المسؤولية هنا يتحملها طرفان:

- الشيخ أو المصلح أو المناضل الذي زين نفسه للناس أكثر من اللازم، وعض أن يعترف بطبيعته البشرية للناس مجتهدا في ضبطها، أظهر لهم عكسها تاركا الحقيقة للسر. لن يرحمه الناس إذا انكشف سره، فهو من أوحى لهم بعكس حقيقته. ولن ينجح في ضبط نفسه مهما كان هذا الضبط مطلوبا ومقدورا عليه، فالذي يظهر بعكس طبيعته البشرية في العلن يمارسها بأبشع الطرق في السر.

- الناس المعاتبون، فهم لم يتمكنوا بعد من الاعتراف بالإنسان كإنسان يسقط في الأخطاء. ولذلك تراهم يعترفون بأخطائهم وطبائعهم، ولكنهم يعوضون عن نقصهم بكره الشيخ أو المصلح ووصفه بأقبح النعوت كلما رأوه على عكس ما يدعوهم إليه.

لم نذكر كل هذا اعتباطا، ولكن كثيرين تواروا بعدما انكشفت عيوبهم السرية. وهذا عيب كبير في مجتمعات تتكلم عن "الخطأ والتوبة" كل مرة، ولكنها عاجزة عن القبول بتوبة الشيوخ والمصلحين والمناضلين.

الجنس متعة لا نظير لها، وهي مغرية لكل أحد.

التحدي أن نقيدها ونضبطها وننظمها، ومن أخطأ فالتوبة بابه والقانون لا علم له بسر أحد. فما للمصلحين والشيوخ يتوارون ويضطربون بمجرد أن ينكشف سرهم؟

أليس في مقدوركم أن تشرحوا للناس ضعفكم أمام شهواتكم؟ ألسنتم بشرا منا؟ ألسنتم ممن زين لكم حب الشهوات من النساء؟

فبمنطق العقل الذي لا يرتهن لواقع، أين هو الخطأ؟

وبمنطق التاريخ، هل الانتكاس إلى الخلف قليلا نهاية للتاريخ؟

وبمنطق السياسة، هل السر يفكك الدولة؟

وبمنطق الصراع مع النفس، أليس الاكتفاء بالسر انتصارا في معركة "الامتناع في العن"؟ "فأما من بلي فليستتر"

وبمنطق الشرع، أليس للفاسق توبة؟

وبمنطق المغاربة، أليس الفضح عيبا؟

وبمنطق الحق، أليس من حقكم أن تحموا أنفسكم من التجسس والأيدي الخفية؟

لماذا كل هذا التداعي على الشيوخ والمصلحين والمناضلين إذن؟

أخيرا، وليس آخرا، نقول:

بقدر ما ندعو إلى تنظيم الجنس وضبطه، فإننا لا نستسهل ذلك؛ فالجنس في حاجة إلى المزيد من الدراسة، ومعها إلى مزيد من التماس الأعدار.

هذا شيء، ومعركتنا التاريخية مع "الإمبريالية الجديدة" و"طابورها السادس" شيء آخر.

المطلوب، إذن، هو أن نجتهد في الضبط ونلتمس الأعذار ونبحث إلى أبعد مدى. ولكن المعارك التاريخية تطلب اليقين والدعوة إلى مزيد من الصبر والصمود في وجه استهداف الأسرة والنشاط الجنسي الطبيعي.

المحور الثاني: تنظيم النشاط الجنسي في الإسلام

1- الشهوة مصلحة يخاطبها الإسلام بدل أن يترفع عنها

بمجرد ما ينطق أحدنا بمفهوم "المصلحة" حتى ينتفض في وجهه الجميع. الكل يرفض الاعتراف بمصالحه، والكل يجري وراءها من غير توقف.

ينطلق الرافضون لاعتراف الإنسان بمصالحه من منطلق كون المصالح كلها منكرة، فينسى هؤلاء أن المصالح ليست واحدة؛ ففيها ما هو معتبر، وفيها ما هو مرسل كذلك.

وهذا أمر يعرفه كل دارس للأدلة التي يُنظر فيها لاستنباط الأحكام الشرعية (وبالضبط الأدلة المختلف حولها).

نعم، يجب ألا يسقط الفرد في رفض مصالحه غير المنكرة، ولكنه بالمقابل مطالب برفض كل مصلحة منكرة؛ وذلك حتى لا يستغل البعض هذا الخطاب للعيش من غير رادع، وحتى لا يعتدي أحدهم على مصالح الآخرين بحكم أن المصلحة معترف بها مطلقاً.

قد يكون هذا النوع من المصالح معترفاً به عند أصحاب "الأناية" بلا حدود، ولكنه على كل حال مما لا يمكن أن يكون معترفاً به شرعاً.

إن خطابي هنا ليس موجهاً لمن أراد أن يجعل المصالح المنكرة معتبرة، ولكنه موجه إلى كل من أراد أن يحرم الناس من الاعتراف بمصالحهم بحكم أن ذلك مرفوض شرعاً أو أنه من أناية الفرد واهتمامه بنفسه أكثر من اللازم.

قد يتساءل البعض: أين هو الإسلام من كل هذا؟

برجعنا إلى القرآن الكريم، نجد أن خطابه ركز أيما تركيز على مصلحة الإنسان؛ وذلك من خلال مسألتين اثنتين:

أولاً: الاعتراف بالطبيعة البشرية، ومنها الاعتراف بمصالح الإنسان الطبيعية.

ألم يقف أحدكم ملياً عند قوله تعالى: "زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث"؟

نعم، فالإنسان يحب كل ذلك ويطمح إليه.

فالشهوات التي يتمتع منها كثيرون، هي التي يقر القرآن بأنها زينت للناس. كل ذلك خير يسيل لعاب الإنسان لأجله، ويتنافس أو يتصارع مع غيره في سبيل الحصول عليه.

قد يستسلم البعض منذ البداية فارين من صراع يعتبرونه فتنة، وقد يخوضه الأقوياء بشجاعة وإقبال. فينتصر البعض، وينهزم آخرون.

وفي النهاية يقال للمنتصر: "أنت مفتون"، وينتشي المستسلمون والمنهزمون بأنهم نجوا من الفتنة بأعجوبة⁴⁶.

الله هو الذي خلق الإنسان، وهو القادر الوحيد على معرفة كل دوافعه.

أتحسبون الله عابثاً -حاشاه- لما قال بتزيينه كل شهوة ذكرت في قلوب الناس؟ هذا قول الله، أما السذج فهم يقمعون مصالحهم بحكم أنها فتنة، وهي عينها المصالح التي يستفيد منها السادة الذين يديرون المعركة في ظروف غير عادلة. ألم يقف أحدكم عند قوله تعالى: "ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة"؟ وعند قوله: "هن لباس لكم وأنتم لباس لهن"؟

إن الآيتين تدلان على اعتراف الإسلام بحاجة كل أحد إلى زوجه، وهي حاجة تظهر في الإنسان لا محالة إلا إذا كان شاذاً عن طبيعته.

وبالرغم من هذا، يتداعى علينا أناس ينكرون كل إحساس يقع في داخل الإنسان، ويحظرون كل إعجاب يبيده معجب، ويحرمون كل سؤال قد يطرحه أحد الأطفال أو المراهقين حول تحول من تحولاته الجنسية، ويدعون إلى التسامي فوق كل دافع أو نازع.

يتمنى الإنسان لو كان قادراً على كبح كل إحساس أو إعجاب أو سؤال أو نازع، ولكن كيف سيحصل ذلك؟

وهل سبق لأحدكم أن وجد في الإسلام تحريماً لأي شيء مما ذكرت؟

الكل يحرم، والكل تأخذه الغفلة، وما هي بغفلة، ولكنها طبيعة الإنسان السوي. يعترف الإسلام بطبيعة الإنسان، ولكنه لا يتركها منفلة من غير رادع. إنه يريد لها أن تصرف وفق الوجه اللائق، وما أحوج الشباب إلى أن يجد من يعينه على إتيان هذا الوجه.

أما الاكتفاء بترديد الأمانى، قد ينفع في تحقق الامتناع والفرار المؤقتين، ولكنه لن ينفع في الحفاظ على الإنسان السوي الذي يصرف انجذابه إلى جنسه الآخر دون غيره ويعيش الحب والجنس معا في ممارسته الجنسية.

يعترف القرآن بحاجة الإنسان وطبيعته، ولكن الأسر تخلق داخلها جوا من الخوف من كل ما هو طبيعي؛ فيخاف كل أفراد الأسرة من البوح بالطبيعة في العلن، ولكنهم يعيشونها في السر بأبشع الطرق.

والغريب هو أنهم يفعلون كل ذلك باسم الدين، ونحن لا نرى هذا الأخير إلا معترفا بكل طبيعة بشرية.

إن هذا النوع من المنع هو الذي ينشئ كل انحراف، ويجعل من المرأة جسدا لا غير، ويمهد لكثير من المشاكل الاجتماعية والمواقف الانتهازية الخنوعة.

ثانياً: وضع خطاب يخاطب مصلحة الإنسان قبل كل شيء.

يظن بعض الوعاظ والفقهاء وأهل العلم أن الله تعالى يخاطب أحدا آخر غير الإنسان، في حين أن ذات الخطاب موجه لمن لا يتحرك إلا وفق ما يوافق رغباته وينميها.

إن الدين يسعى إلى ترقية كل مصلحة، فمن يجد ذاته في القراءة والتفكير للبشرية، ليس كمن يجدها في إشباع البطن والفرج لا غير.

ولكن الحقيقة التي يجب معرفتها هي أن الدين لا يترفع على مصالح الناس، بل إنه يخاطبها ويخاطبها بقوة.

ألم يقف أحدكم أيها القراء وهو يقرأ القرآن على ما فيه من مخاطبة للدوافع والنوازع والرغبات والمطامح؟

ألم يقف أحدكم على كل حكم تتبعه مصلحة أو يحققها انطلاقاً من الفهم العام للإسلام؟

ومن يتحدى هذا القول، فليأت بآية واحدة بعيدة عنه كل البعد.

عن أي شيء تريدونني أن أتحدث لكم؟ عن الإيمان؟ أم عن أحكام العبادات؟ أم عن أحكام المعاملات والجنايات والنكاح؟ أم عن الأخلاق؟

إن كل أمر أو نهى يدخل في باب من هذه الأبواب، لن تجده إلا مخاطباً لمصلحة من مصالح الإنسان.

والمصالح هنا ليست دنيوية فقط، بل هي أخروية كذلك.

وكل مصلحة أخروية لن تكون أبداً ضد المصلحة الدنيوية مهما حصل، إلا إذا كانت هذه الأخيرة مصلحة منكرة تهلك الذات وتؤدي الآخرين.

2- تنظيم النشاط الجنسي في الإسلام: بين المثال والواقع

لا يواجه أحد الإسلام كدين خالص منسحب من كل معركة قائمة، بل إن الرأسمالية المتوحشة تكيد له المكائد (تحريفاً واستغلالاً وفق ما يخدم أغراضها الدنيئة) لسببين هما:

- كون الإسلام يحفظ الأسرة، وبالتالي الدولة.

- كون الإسلام يحفظ النسل وينفخ الروح في أجيال جديدة تمضي
باستراتيجيته وتنافح عنها.

فما هي استراتيجية الإسلام إذن؟

الكلية الخمس، هي ما يجب قراءته على ضوء شروطنا التاريخية الحالية.
وهي نفسها المستوعبة لاستراتيجية الإسلام بحق، حيث النظر في المقاصد
ووسائلها دون أن تنفي إحداها الأخرى.

فليس التجديد هو التراجع عن الأحكام العملية في زمن الانتكاس، وإنما هو
البحث لها عن سبل الاستثمار في هذا الزمن بالذات.

فما دام السياق سياق تفكيك رأسمالي، وما دام المستهدف هو الإسلام (دين
الاستقلال والعدالة والتنوير والسلم والمقاومة...)، فليرابط المرابطون وليتب
الخطأون.

غايات الإسلام الكبرى - كما استنبطها علماء الإسلام - هي:

حفظ الدين، وهذا هو المستهدف بغرض الرجوع إلى "الغابوية" و"الغريزية".
حفظ النفس، وهذه هي المستهدفة حتى يعيش المالكون الكبار وحدهم.
حفظ العقل، وهذا هو المستهدف ليمارس التدليس والتجهيل على الناس نهارا
جهارا.

حفظ النسل، وهذا هو المستهدف حتى لا تبقى أسرة، فلا يتزايد نمو سكان
العالم ملوِّحا بإنهاء علاقات الإنتاج الرأسمالية.

حفظ المال، وهذه هي غاية الغايات بالنسبة للرأسمالية المتوحشة.

فليمت الجميع، ولتعش الطغمة الرأسمالية وحدها على فائض القيمة في المراكز والأطراف معا.

(لن نهتم بترتيب الكليات كثيرا، فقد اختلف فيه العلماء بمختلف مدارسهم ومذاهبهم؛ ولكننا سنقدم قراءة في هذه الكليات على ضوء ما جاء في الإسلام، وما نعيشه اليوم من أزمات وفتن يصدرها الغرب الرأسمالي إلينا)

بهدف الحصول على فائض القيمة بلا انقطاع ولا تراجع، وبهدف استمرار الرأسمالية المتوحشة مهما احتضرت، تُرفع خمسة شعارات كبرى:

- الإلحاد والاستهزاء بالأديان.

- القتل والإرهاب.

- التجهيل والتدليس.

- قطع النسل وتشثيت الأسر.

- التفجير والربح بلا قيود.

الهدف من رفع هذه الشعارات هو ضرب الأفراد والمجتمعات والدول في آن واحد، وما يهمنا نحن هنا هو:

- ضرب الأسر بسوء أخلاق الأفراد وانحطاط قيمهم ودفعمهم إلى الزهد في الأسر والجنس متاج.

- ضرب الأفراد بالأسر بعد تشثيتها وإفقادها أدوارها التاريخية (التربية على قيم الوطنية والاستقامة والاحترام والطاعة...).

- ضرب الدول بتشتيت الأسر، وبالتالي بإفقاد المجتمع تماسكه وقيمه وكل قانون أو حكم يضبط سلوك أفرادها.

الأسرة مستهدفة بداية، وقبلها الأفراد.

وذلك باللعب على أوتار الغريزة الجنسية، حيث يتبارى أصحاب رؤوس الأموال في إحيائها وإيقاظها بلا قيود تحددها وتضبطها.

وإن الإسلام ليأبى اليوم، كما كان من ذي قبل، إلا أن يصمد باستراتيجيته أمام كل هذه التحديات.

المحور الثالث: الجنس في فكر الإسلاميين

1- "الرباط المقدس" ووسائله عند سيد قطب ومحمد قطب

لم يحرم الإسلام الشعور بالميل إلى النساء، ولكنه حرم العلاقة بهن دون انضباط لأحكامه. في هذا بالضبط، يختلف الإسلام عن النصرانية.

فإذا كانت هذه تحرم ما هو من طبيعة الإنسان، فإن الإسلام يعترف به ويأمر بتنظيمه وفق أحكام القرآن والسنة.

إن تعالي القساوسة النصارى عن حاجاتهم الطبيعية (الميل إلى النساء)، هو ما جعلهم يسقطون في أكثر المنكرات فحشا.

وإن تربية الأبناء على ما تأمر به النصرانية من تعال على الشهوة الجنسية أكثر من اللازم، هو ما يجعلهم قابلين أكثر من غيرهم للشذوذ الجنسي.

لقد تشدد محمد قطب في الدفاع عن الطبيعة (الفطرة)، حتى دافع عن العلاقة بين الرجل والمرأة فيسيولوجي: "فكل بروز من جهة المرأة يقابله بروز

من جهة الرجل، وكل بروز من جهة الرجل يقابله بروز من جهة المرأة... وهو ما يشكل تعشيقاً متناسقاً متوازناً" (بتصرف).

وقد قدس علاقة الزواج، حتى حرم كل فن يصور علاقة أخرى غيرها خارج إطار الإسلام.

لا يضبط الجنس، في نظر محمد قطب، إلا بأحكام الإسلام.

وفي ذلك، لا ينبغي أن ننسى منظومة "الجريمة والعقاب" في هذا الدين.

على هذا الأساس، يجد محمد قطب نفسه مدافعاً عن "حد الزنا" كجزء من منظومة الإسلام التشريعية.

فالإسلام، في نظره، "كل لا يتجزأ" كما يقول سيد قطب في "السلام العالمي والإسلام"⁴⁷.

سيد قطب نفسه لم يغفل مناقشة النشاط الجنسي من منظور إسلامي، إلا أنه ناقشه في إطار مناقشته للوسائل (الأحكام) التي يتحقق بها مقصد "سلام البيت".

يقرر سيد قطب في أول الفصل (سلام البيت) وآخره: "الفرد الذي لا يستمتع في بيته بالسلام، لن يعرف للسلام قيمة، ولن يتذوق له طعماً، ولن يكون عامل سلام، وفي أعصابه معركة، وفي نفسه قلق، وفي روحه اضطراب"⁴⁸.

فكيف نحقق هذا السلام، من منظور سيد قطب، إذن؟

47- راجع لمحمد قطب: "الإنسان بين المادية والإسلام"، و"منهج الفن الإسلامي".

48- سيد قطب، السلام العالمي والإسلام، دار الشروق، الطبعة الثانية عشرة، 1993، ص 102.

لن يتحقق هذا السلام إلى بما يسميه سيد قطب "الرباط المقدس"، "ميثاق الزوجية" باعتباره المعبر الوحيد عن العلاقة المشروعة بين الرجل والمرأة في الإسلام.

يقول سيد قطب:

"فهي (يقصد علاقة الزواج) صلة النفس بالنفس، وهي صلة السكن والقرار، وهي صلة المودة والرحمة، وهي صلة الستر والتجمل".

ويقول أيضا:

"يحيط الإسلام هذه الخلية (يقصد الأسرة)، أو هذا المحضن، أو هذه المثابة، بكل رعايته وبكل ضماناته. وحسب طبيعة الإسلام الكلية، فإنه لا يكتفي بالشعارات الروحية، بل يتبعها التنظيمات القانونية، والضمانات التشريعية".⁴⁹

هذا، ولن نحافظ -في نظر سيد قطب- على هذا "الرباط المقدس" إلا بما يلي⁵⁰:

- منع الاختلاط والتبرج: في سبيل أن "لا يقع الإغراء، فتتحرف العواطف ويقع الانزلاق والخطيئة"، بتعبير سيد قطب.

وكل هذا سيهدد الزوجة بأن يزهد فيها زوجها، وسيهدد الزوج بأن تزهد فيه زوجته.

- الحدود:

وهنا يقول سيد قطب: "إن الإسلام لا يدع كؤوس الخمر تهيج الدم في العروق، ونهود الخليعات وشفاههن الظامئة ونظراتهن الفاجرة تهتف بالرجال، ثم يكلف

49- نفسه، ص 68.

50- نفسه، فصل "سلام البيت".

الرجال أن يضبطوا نزواتهم ويكبحوا شهواتهم... كلا. إنه يأخذ الأمر من أطرافه جميعا، ويأخذ على أسباب الفتنة الطريق منذ الخطوة الأولى، ثم يكلف الناس ما في طوقهم حينذاك، بدون مشقة وبدون إعانات.

فإذا وقعت الفاحشة بعد ذلك، ففي سبيل سلام البيت، وفي سبيل تماسك المجتمع، يأخذ الأمور بعقوبات رادعة يوقعها على الفاحشين والفاحشات".⁵¹

- الطلاق: إذا استحالَت إمكانية استمرار العلاقة الزوجية.

- تعدد الزوجات: باعتباره تشريعا اجتماعيا وقائيا.

يقول سيد قطب: "رخصة تعدد الزوجات... في الإسلام وقاية اجتماعية بحثة، يتقي بها أخطارا أكبر من مزاج الأفراد، ومن رغبات الزوجات والأزواج".⁵²

نسجل على سيد قطب هنا ملاحظتين هما:

- تقييده الحدود بشروطها، فلا حد يطبق على الزاني والمجتمع في انحلال وخلاعة.

- تجاوزه رغبات الأفراد، ولكن بقراءته في الإسلام لسوء الحظ، وليس بالتاريخ.

2- "النظرية الجنسية في الإسلام" عند فتحي يكن

يعرض فتحي يكن ما يسميه "النظرية الجنسية في الإسلام" بقوله:

51- نفسه، ص 80.

52- نفسه، ص 90.

"يعتبر الإسلام الغريزة الجنسية إحدى الطاقات الفطرية في تركيب الإنسان التي يجب أن يتم تصريفها والانتفاع بها في إطار الدور المحدد لها، شأنها في ذلك شأن سائر الغرائز الأخرى.

إن استخراج هذه الطاقة من جسم الإنسان ضروري، كما أن اختزانها فيه مضر وغير طبيعي، ولكن بشرط الانتفاع بها وتحقيق مقاصدها الإنسانية.

إن الفطرة جعلت في استخدام هذه الطاقة لذة ممتعة، ولكنها لم تجعل هذه اللذة هدف الاستخراج المحض".⁵³

ليس استخراج الطاقة الجنسية هدفا في ذاته، فما هي أهداف هذا الاستخراج إذن؟

يحصر فتحي يكن هذه الأهداف في أربعة هي:

- عقد أواصر المودة بين الرجل والمرأة.

- تكوين الأسرة.

- استمرار النوع وتكاثر النسل وعمارة الحياة.

- تحقيق النفعين الحسي والنفسي للإنسان من إفراغ الشحنة الجنسية".⁵⁴

ومما يجب عدم إغفاله في تصور فتحي يكن أيضا، بيانه لما تؤدي إليه الإباحة الجنسية من: "تبيد للثروة القومية، وتقويض للصحة العامة، وهدم للأواصر المجتمعية، وتخريب للأخلاق الإنسانية".

53-فتحي يكن، الإسلام والجنس، مؤسسة الرسالة، 1972، ص 26.

54-نفسه، ص 26-27.

وفي الأخير، وجدناه يقول: "حين تبتلى أمة من الأمم بمثل هذه الآفات (يقصد الآفات المذكورة أعلاه) بسبب تفحّشها وتهتكها. حين تتبدد ثروتها، وتتهتك أخلاقها، وتنفصم أواصرها. وحين تجتاحها الأمراض الفتاكة تكون قد فقدت مقومات وجودها، وأسباب بقائها واستمرارها، ومن ثم تكون قد حكمت على نفسها بالإعدام.

والتاريخ البشري يؤكد هذه الحقيقة. يؤكدها قديما ويؤكدها حديثا. يؤكدها قديما حين يكشف عن أسباب انهيار الامبراطوريات. ويؤكدها حديثا حين يبحث في أسباب هزائم الجيوش والدول.⁵⁵

بهذا، لا يخرج فتحي يكن عن رسالة معلميه السابقين (سيد ومحمد): فالجنس طبيعة، والانحراف شذوذ، و"العقوبة وسيلة للتربية والبناء" (بتعبير فتحي يكن)، والعلاقات الزوجية مقدسة، والمرأة أمٌ قبل أن تكون أي شيء آخر (نفس الشيء يركز عليه محمد قطب في "الإنسان بين المادية والإسلام")، والتربية مدخل أساسي لتنظيم النشاط الجنسي للإنسان...

3- "وسطية السلوك الجنسي" عند يوسف القرضاوي

لا يزيد يوسف القرضاوي على ما يؤكدّه الثلاثة السابقون إلا تأصيلا وتفصيلا، مع أن حكم الفقيه يخفف الكثير مما تخلفه شدة حماسة الأديب؛ فالفقيه يبحث

55- نفسه، ص 63-64. هكذا سقطت الأندلس، وهكذا يفسر سيد قطب انهزام الجيش المصري في حرب 67. التفسير الأول يصور لنا الكثير من الحقيقة، أما الثاني ففيه نقاش كثير، فليس الانحلال الجنسي وغيره هو سبب انهزام الجيش المصري بحسب العديد من الخبراء والمفكرين (منهم ياسين الحافظ في "التجربة الفيتنامية").

أكثر فيما استجد من سلوكيات ومظاهر، فيحاول أن يجد لها حكما انطلاقا من الإسلام.

أما الأديب، فهو يؤطر الفكر ويدعو إلى العام من المبادئ والقيم ويقف عند المقاصد والغايات أكثر مما يقف عند تفاصيل كل حكم على حدة.

ففي "موقف الإنسان أمام الغريزة الجنسية" (بتعبير يوسف القرضاوي)، يسعى يوسف القرضاوي إلى تحديد المنزلة الوسط (وهو من يعرف الوسطية بقوله: "هي مطلق الاعتدال بين طرفين مذمومين") هما: إطلاق العنان للشهوة (الإفراط)، أو كبتها (التفريط).

وتلك هي منزلة: "أن يضع (الإنسان) للشهوة حدودا تنطلق في داخلها، وضمن إطارها، دون كبت مرذول، ولا انطلاق مجنون، كما هو الشأن في الأديان السماوية التي حرمت السفاح وشرعت النكاح -الزواج- وخصوصا الإسلام الذي اعترف بالغريزة، فيسر سبيلها من الحلال، ونهى عن التبتل واعتزال النساء، كما حرم الزنا ومقدماته أشد التحريم"⁵⁶.

في سبيل كل هذا، يعرض القرضاوي كل الأحكام المتعلقة بالنشاط الجنسي للإنسان والعلاقة بين الجنسين والأسرة، يعرضها مرفقة بأدلتها وأقوال الأئمة الأربعة والفقهاء فيها.

وكمثال على ذلك، فلننظر إليه كيف اعتبر "الشذوذ الجنسي من كبائر المحرمات".

56- يوسف القرضاوي، الحلال والحرام في الإسلام، مكتبة وهبة، الطبعة الثانية والعشرون،

لقد جعل "الشذوذ الجنسي" مقتصرًا على "اللواط" (أن يأتي الذكران الذكران).
فقال:

"فهذا العمل الخبيث انتكاس في الفطرة، وانغماس في حمأة القذارة، وإفساد
للرجولة وجناية على حق الأنوثة".⁵⁷

هكذا سيصبح "اللواط" هو صلة الوصل بين بحث القرضاوي عن حكم "الشذوذ
الجنسي" وبين الدليل الشرعي (القرآن الكريم).

هكذا ستدل الآيتان 165 و166 من سورة الشعراء على عدوان قوم لوط وإجرامهم،
وبالتالي على تحريم "اللواط"، ثم على تحريم "الشذوذ الجنسي".

ف "عادون" كما وردت في "الشعراء" من صيغ النهي، و"النهي" يحمل على
التحريم أصالة إلا إذا وردت قرينة الكراهة" كما ورد ذلك في قواعد "دلالات الألفاظ"
في أصول الفقه.

وهكذا ستدل آيات سورة هود (77-81) على فساد ذوق الشواذ جنسيا، وذلك من
فساد ذوق قوم لوط ما أثر على موقفهم من رسل الله الملائكة.

وهكذا سينتقل القرضاوي إلى البحث عن حد للشذوذ الجنسي، ومن ثم إلى ذكر
اختلاف الفقهاء في هذا الباب.⁵⁸

4- "الجنس والتجاوز" عند عبد الوهاب المسيري

يختلف عبد الوهاب المسيري كثيرا عن المذكورين أعلاه، ولكنه يلتقي معهم
في "تجاوز الكامن" وكذا في "الدفاع عن الأسرة".

57- نفسه، ص 151.

58- نفسه، ص 152.

وكلا الأمرين يمكنهما أن يُعتبرَا مدخلا لفهم نظرة صاحب "العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة" للسلوك الجنسي البشري، فتأمل.

لتفسير العالم والوجود، يقول المسيري بوجود مرجعيتين هما:

- "المرجعية النهائية الكامنة": وهي المرجعية التي تبحث عن التفسير لما يحدث على الأرض داخلها، أي تفسر عالم الشهادة بعالم الشهادة.

وفي هذه المرجعية يلتقي التقاء غريبا كل من: هيجل وماركس ونييتشه وداروين وديدرو وغيرهم. فمهما كان هيجل مثاليا روحيا، ف"حلوليته كمونية روحية".

ومهما آمن ماركس بالإنسان والنضال في سبيل تخليص البشرية من استغلال الرأسمالية، ف"حلوليته كمونية مادية".

- "المرجعية النهائية المتجاوزة": وهي المرجعية التي تبحث عن التفسير لما يحدث على الأرض خارجها (خارج التاريخ)، أي تفسر عالم الشهادة بعالم الغيب.

اللحظة التي يتم فيها إنكار كل تجاوز، والرجوع إلى الكامن وحده، تلك هي "اللحظة العلمانية النماذجية الشاملة".

تلك هي اللحظة التي يصبح فيها الإنسان اقتصاديا محضا، وذلك هو الإنسان السنغافوري. وتلك هي اللحظة التي يصبح فيها الإنسان ماديا طبيعيا محضا،

وذلك هو الإنسان الصهيوني. وتلك هي اللحظة التي يصبح فيها الإنسان جنسانيا محضا، وذلك هو الإنسان التيلاندي.

ما يهمنا هنا هو هذه اللحظة الأخيرة، وما يهمنا أكثر هو أنها نتاج "للمرجعية النهائية الكامنة".

ففي نظر المسيري، كل "مرجعية غير متجاوزة" هي مرجعية غير قادرة على تخليق الإنسان وضبط سلوكه وتحصينه من السقوط في "اللحظة العلمانية النماذجية الجنسية الشاملة".⁵⁹

لا ينظر المسيري إلى وضع المرأة بعيدا عن واقعها العالمي الجديد، ولكنه يتكلم عن توجهات مخدومة يراد لها أن تنتشر في صفوف النساء لتحولن إلى وسائل إشهارية.

ومن هنا يعلن رفضه لأشكال التحرر النسوية الجديدة، هذه الأشكال التي لا تخرج عن السياق الجديد للحركات التحررية في العالم.

هذا، ولا ينسى المسيري إبداء إعجابه بالمنزع الإنساني للحركات التحررية القديمة مهما اختلف معها في "مرجعيتها النهائية الكامنة".

لقد كانت تلك الحركات تنطلق من عدة مبادئ أساسية، لعل أهمها:

- الواحدة الإنسانية (الهيومانية)،

- الإيمان بتميز الإنسان عن الطبيعة،

- الإيمان بتفوق الإنسان عليها ومركزيته فيها،

- القول بقدرة الإنسان على تجاوز الطبيعة وصياغتها وصياغة ذاته.⁶⁰

وعلى العكس من مبادئ الحركة التحررية القديمة، ظهرت مبادئ نقيضة تدعو إليها حركات تحررية جديدة. وأشد ما ينتقده المسيري في هذه الحركات الجديدة

59-راجع: "الفلسفة المادية وتفكيك الإنسان"، لعبد الوهاب المسيري.

60-عبد الوهاب المسيري، قضية المرأة: بين التحرير والتمركز حول الأنثى، نهضة مصر،

الطبعة الثانية، 2010، ص 9.

هو ماديتها المتطرفة، ولا إنسانيتها الواضحة. فإذا كانت الإنسانية تهتم بإبداع المرأة وإتقانها لعملها وراحتها ولو في بيتها، فإن المادية⁶¹ لا تهتم إلا بالإنتاج والربح ومراكمة الثروة ودفع المرأة إلى العمل لتستنزف مع العمال في المصانع. "التحول من المرأة الإنسان إلى المرأة المادة/الطبيعة" ليس مبدأ "الواحدية السائلة وذوبان الأنثى" الوحيد، فبالإضافة إليه يذكر المسيري مبدأين آخرين هما: "تمركز المرأة حول ذاتها"، و"تسوية المرأة بالرجل".

كل هذا -في نظر المسيري- يعلي من قيمة "الإنسان الطبيعي" على حساب قيمة "الإنسان الاجتماعي"، ويعلي من قيمة الفرد على حساب قيمة الأسرة. فتمكين المرأة من جسدها بعيدا عن كل واجب اجتماعي، وتمكين الرجل من جسده بعيدا من ذلك أيضا، هو ما يهدد الأسرة بالتفكك والحضارة الإنسانية بالانهيار.

يلخص المسيري خطه التحليلي، في هذا الباب، بقوله:

"نقطة البدء والوحدة التحليلية هي الإنسان الاجتماعي وليس الإنسان الطبيعي، وهي الأسرة وليس الفرد المنشطي الوحيد الذي تكتسحه وسائل الإعلام وتحركه المؤسسات الكبرى".⁶²

المحور الرابع: التنظير للثورة الجنسية... مساءلة معرفية تاريخية

ملحوظة:

61-توظيف المادية بهذا الشكل، عند عبد الوهاب المسيري، في حاجة إلى مراجعة ليس هذا مكانها.

62-عبد الوهاب المسيري، نفس المرجع السابق، ص 50.

لقد كان بإمكاننا أن نناقش هنا عدة تصورات، إلا أننا فضلنا أن نقتصر على تصورين: تصور فيلهلم رايش مؤسس "الثورة الجنسية"، وتصور عبد الصمد الديالمي الذي لم يفتر لسانه من ترديد إعجابه بها.

تتعدد المداخل والتخصصات، ولكن النتيجة في نهاية المطاف تكون واحدة: الاغتراب عن الجنس الطبيعي وتفكيك الأسرة (صمام أمان دول الجنوب). هذا ما يصدق في نهاية المطاف على كل من: العفيف الأخضر، ونوال السعداوي، ومحمد شحرور...

كلهم يؤدون نفس المؤدى، بقصد أو بغير قصد.
لا يهم ذلك، فالقصد يوجهه السداد النظري.

1- فيلهلم رايش

لقد سمعت عبد الصمد الديالمي يتحدث كثيرا عن فيلهلم رايش، فاعتقدت أن ما يقوله الرجل هو عين الحقيقة.

إلا أنني بعد اطلاع خفيف على بعض ما كتبه رايش في كتابه "المادية الجدلية والتحليل النفسي"، اكتشفت أن الديالمي يتحدث لنا عن رايش الذي في خياله لا رايش الذي عاش في التاريخ.

في بسطه للشروط التاريخية التي ظهر فيها "التحليل النفسي" مثلا، لا يكاد رايش يخرج من التاريخ كما يفعل الديالمي كل مرة.

فما كان التحليل النفسي ليظهر لولا انتكاس البورجوازية بعدما كانت ثورية، وما كان العامل الجنسي ليتضخم عند فرويد لولا سيادة العادات الجنسية الإقطاعية في لبوس بورجوازي من جديد.

يقول فيلهلم رايش:

"يبدأ الكبت والتحقير الجنسيين المستمرين يصيران جدليا إلى عنصر هدام لمؤسسة الزواج وللإيديولوجيا الأخلاقية الجنسية. في البدء تأتي المرحلة الأولى من انهيار الأخلاق البورجوازية: الأمراض النفسية تتزايد ازديادا كبيرا. والعلم الرسمي، الذي هو نفسه أسير الكبت الجنسي، يحتقر الجنس كموضوع للبحث، وينظر إلى الشعراء والكتاب، الذين تشغلهم هذه المسألة الساخنة انشغالا متزايدا يوما بعد يوم، نظرة ازدراء.

ويفسر هذا العلم الأمراض النفسية، مثل الهستيريا والنفرة العامة التي تتزايد وباستمرار، على أنها أوهام، وأنها نتاج لإجهاد العمل.

وفي نهاية القرن التاسع عشر ظهر، كرد فعل على هذا العلم المأسور أخلاقيا وكعلامة على المرحلة العلمية الثانية لانهايار الأخلاق البورجوازية، في وسط الطبقة البورجوازية نفسها، باحث يزعم أن النفرة العصرية هي نتيجة للأخلاق الجنسية الحضارية"⁶³.

فرويد الذي لم يكن مهتما بالاجتماع أكثر من النفس، والذي كان يقول بإمكانية التحكم في النفس دون تغيير ظروفها الاجتماعية، هو نفسه الذي لم يكن باجتهاده إلا مستجيبا لتناقض عصره بين بروليتاريا محرومة جنسيا وبورجوازية تبرر هذا الحرمان بأخلاق إقطاعية.

فهم رايش لكل هذا، هو ما جعله يدعو إلى "ثورة جنسية" تحرر العمال ليقفوا في وجه استغلال الرأسمالية، وتنفي الأخلاق والإيديولوجيات الجنسية

63- فيلهلم رايش، المادية الجدلية والتحليل النفسي، ترجمة بوعلي ياسين، دار الحداثة،

الإقطاعية التي أراد البورجوازيون أن يجددوها حتى يحافظوا على الطبقة العاملة وقابليتها للاستغلال في نفس الوقت.

إن "الثورة الجنسية" لدى فيلهلم رايش هي ما حاول من خلاله:

- القيام بثورة سياسية اجتماعية تعصف بالبورجوازية وممثليها السياسيين، وهذه الثورة في نظره لن تتحقق إلا بثورة جنسية لا مجال فيها للكبت الجنسي.
- تقديم العلاج للتخلص من كل الأمراض العضوية والاضطرابات النفسية، وهو ما دفعه إلى اختراع آلة "الأورغون" بهدف إشباع الإنسان جنسيا وإعداده للمعارك الاجتماعية والسياسية.⁶⁴

إنها معركة "الوعي باللادوعي" كما بدأها فرويد مستجيبا لشروطه التاريخية التي لم يهتم بها هو نفسه، وكما اكتشفها إيريك فروم في "أزمة التحليل النفسي"، وكما حاول أن يكملها ويبحث لها عن تطبيقات مستحضرا شروطها التاريخية فيلهلم رايش في "المادية الجدلية والتحليل النفسي".

لا نقول بأننا نتفق مع رايش فيما توصل إليه، ولكننا أردنا فقط أن نثبت بُعدَ منطق الدياليمي عن منطق.

فلا المادية الجدلية هي المثالية، ولا تاريخانية الماركسية هي وضعية علم الاجتماع البورجوازي، ولا ألمانيا النازية هي مغرب الاستعمار الجديد، ولا "الثورة الجنسية" في مواجهة البورجوازية هي الأسرة في مواجهة استهداف الغرب الرأسمالي...

64- عبد الله مجيد، مقال بعنوان "فيلهلم رايش: نصير الحب وداعية المصاهرة بين الجنس والسياسة"، إيلاف، يومية إلكترونية صدرت من لندن في 21 مايو 2001.

2- عبد الصمد الديالمي

تجدر الإشارة إلى أن الفرق كبير بين ما يكتبه عبد الصمد الديالمي وما يصرح به للإعلام؛ أنه في كتاباته أقرب إلى المنطق الذي اعتمدها أعلاه (دون أن يحدد الواقع والشرط التاريخي لكل مرحلة بدقة)، وفي تصريحاته أميل إلى المثالية والابتعاد عن المادية الجدلية. أو لنقل: إنه يراعي الواقع الاجتماعي في الماضي، ويغض عنه الطرف في الحاضر والمستقبل.

ليس هذا حكما شاملا لكل ما تضمنته كتب الديالمي، ولكنه الانطباع الأول المستمد من مطالعتها.

ويبقى التحليل بالرغبة هنا وهناك، والاكتفاء بالطموح هنا وهناك، أمرا لا مفر من إيجاده فيما يكتبه صاحب "سوسيولوجيا الجنسية العربية".



لقد آمن الديالمي ب"الثورة الجنسية" بشكل رهيب، فأعلن معركته على الفقهاء والدعاة بلا هوادة؛ هم يدافعون عن الأسرة، وهو يدافع عن العلاقات الجنسية بلا رادع.

هم يدعون إلى تكثير سواد الأمة، وهو يدعو إلى الإجهاض وتناول حبوب منع الحمل.

هم يؤمنون بالإنسان السوي بالانضباط لأحكام الشريعة الإسلامية المنظمة للجنس، وهو يؤمن بالإنسان السوي بالسلوك الجنسي الذي لا رقابة عليه.

لم يسلم من نقد الديالمي لا فقهاء العصر ولا فقهاء الماضي القديم؛ فهو لا ينظر إليهم إلا كأدوات لتكريس نمط معين من السلوك الجنسي.

وبالتالي، لتكريس نمط معين من الاستغلال والحكم.

إن قراءة واحدة في كتاب "المعرفة والجنس" لعبد الصمد الديالمي، تجعلنا نستنتج ما يلي:

أولاً: إغفال العمل في الحكم على مدى صدقية النظرية

إن العمل الذي أسس العلم، هو ما يعرقله في نهاية المطاف.

إن العمل الذي يجعلنا "نمتلك الشيء في ذاته لأجلنا" (إنجلز)، هو ما يجب تجاوزه مهما كان ذلك مكلفاً في واقع الناس العملي.

هذا ما يريده الديالمي، أو هذا ما فهمته من دعواته.

أليس هذا ما يقصده الديالمي بقوله:

"فالسؤال المؤسس لعلم النفس (كيفية تدجين الطفل، والعامل، والأحمق) هو في نهاية المطاف العائق الأبستمولوجي الرئيسي في طريق الموضوعية"⁶⁵

إنها نزعة من نزعات ميشيل فوكو... فالعلم هيمنة حقا، ولكن العمل -الذي أدى إليه- سيؤدي إلى تجاوزه.

هذا ما ينساه الديالمي، فيتعلق بأوهام الموضوعية والتطوير النظري المتجاوزة للواقع دون أن تعتبره.

قد تظهر هذه الدعوة دعوة إلى المحافظة، إلا أن المحافظة تجديد من نوع آخر.

إنها حركة لا تظهر للناظرين، إنها مقاومة ودفاع حيث يطلب الواقع ذلك.

65-عبد الصمد الديالمي، المعرفة والجنس، اتصالات سبو، الطبعة الثانية، 2010، ص 18.

لا يريد الديالامي التغيير وحده، فالتغيير نفسه ملغوم بالنسبة إليه.
إنها دعوة إلى التمرد والثورة، تتبعها دعوة إلى الشك في كل شيء.
تلك هي ذهنية العالم في المختبر، ولكنها لا تنفع في العمل الجماعي إلا بعد
أن تنضج شروطها التاريخية.
انظر الآن أيها القارئ إلى "لا أدرية" الديالامي كيف تجد طريقها إلى التشكل، انظر
إليها في قوله هذا:

"يمكن الحديث عن ثلاثة مفاهيم لا تشكل إغناء لحق العلوم الإنسانية فحسب،
وإنما شرطا لانطلاقة جديدة في اتجاه جديد. إنها مفاهيم الاختلاف
(الإثنولوجيا) واللاشعور (التحليل النفسي) والبنية (نظرية اللغة). حقا، أدت تلك
المفاهيم إلى تصحيح الحيف الإيديولوجي والنظري المؤسس للعلوم الإنسانية
في الأصل، لكنها وفي الوقت ذاته، قضت على مقولة الطبيعة البشرية،
باعتبارها من رواسب النزعة المثالية. إلا أن التناقض الذي تقع فيه علوم الإنسان
يقضي عليها كمشروع علمي. فكيف يمكن أن تقوم كعلوم بصدد كائن تعمل
هي نفسها على القضاء عليه، معرفيا؟"⁶⁶

ها قد ظهرت حقيقة الديالامي، وها قد ظهر سبب عيبه النظري؛ إنه عدم
اهتمامه بالتاريخ وقواعده، ومن ذلك تهريبه الجنس منه إلا نادرا.

أليس من العيب أن نبحث في المحدد وننسى المحدد؟

أليس من غير المعقول أن نفسر الظواهر بما لا يفسرها (السيكولوجي والفلسفي
واللساني) مدعين حيازتنا تفسيرنا نهائيا؟

يعتقد الديالمي أن "المادية التاريخية" تحرمه من البحث السيكولوجي أو السوسولوجي الوضعاني، في حين أن هذا غير صحيح.

إنها لا تمنع ذلك، ولكنها تنزع إلى إلغاء التفسير بالرغبات الذاتية.

فالتاريخ قواعد والواقع الموضوعي يوجد خارج شعورنا، فكيف سنترك تفسير التفاسير لنكتفي بالخلاصات الوضعانية لكل علم علم؟

ثانياً: عدم تحديد الواقع بدقة

كان بوسعنا أن نضعف أمام دعوى الديالمي إذا اتهم "المادية التاريخية" بأنها دعوة شمولية (ولو أن هذا الكلام غير مقبول، لأن المادية التاريخية لا تمنع البحث الجزئي الخاص بكل مجال علمي على حدة). إلا أن عرضه للواقع القديم بنوع من البساطة والسطحية هو ما يجعلنا نفعل العكس.

لقد استهوانا انتقال الديالمي من الجنسي إلى الاجتماعي، وذلك بفعل تخصصه.

ولكننا وجدنا مكمنا من مكامن النقص في كتاباته، وعرفنا سبب وصفه الدقيق للواقع الذي ظهرت فيه "النظرية الفرويدية".

إن السبب هو اطلاعه عليها في كتاب "المادية الجدلية والتحليل النفسي" لفيلهلم رايش، وإلا فأين تبخرت هذه الدقة لما تحدث الديالمي عن الصراع بين الوطاسيين والسعديين في كتابه "المعرفة والجنس"؟

أليس عيباً منهجياً أن يشبه الديالمي مجتمعنا اليوم بمجتمع "الصراع بين الوطاسيين والسعديين"؟

هل زمن الصراع بين الإقطاعيين المركزي والمحلي هو زمن الصراع بين الشمال والجنوب؟

وهل زمن الغزو البرتغالي هو زمن الاستعمار الجديد؟

وهل نمط النشاط الجنسي في القرن 16 م هو نمطه في القرن 21 م؟

وهل فقهاء ذلك الزمن هم إسلاميو هذا الزمن؟

هل الانحراف الجنسي يفسر الأصولية حقا؟

وهل هو التفسير النهائي والأخير أم أنه في حاجة إلى تفسير؟⁶⁷

دعونا نناقش هذه القضايا واحدة واحدة، ولنتساءل مع الديالمي قليلا كما يدعونا هو إلى التساؤل دائما.



إن الاضطرابات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية دائما ما تحمل معها اضطرابات ثقافية وقيمية، ولكنها ليست في مغرب اليوم كما هي في مغرب "الصراع بين الوطاسيين والسعديين".

إن "أنماط الإنتاج" التي يرفضها الديالمي هي التي تقول بالاختلاف، فنمط الإنتاج الرأسمالي ليس هو النمط الإقطاعي.

67-راجع: "المعرفة والجنس"، و"سوسيولوجيا الجنسية العربية"، و"المدينة الفاضلة والأصولية والإرهاب: مقارنة جنسية"... لعبد الصمد الديالمي.

وبالتالي، لن يكون مصطفى بن حمزة هو أحمد بن عرضون، ولا متصوفة هذا العصر هم مجاذيب ذلك الزمن، ولا "خلعاء" (بتعبير عبد الصمد بلكبير) هذا العصر هم "منحلو" ذلك الزمن...

فمصطفى بن حمزة يواجه الاستعمار الثقافي في زمن الاستعمار الجديد، أما أحمد بن عرضون فقد كان كل همه هو مواجهة الانحلال الجنسي الداخلي في مجتمع لم يكن مهددا ثقافيا، وإنما عسكريا فحسب.

ومتصوفة هذا العصر يلعبون أدوارا أخرى ويصدرون مواقف أخرى، وهي غير تلك المواقف التي كان يصدرها عبد الرحمان المجذوب تجاه عصره وتجاه النساء.

و"خلعاء" اليوم ينضون تحت لواء عدة مراكز وجمعيات ومؤسسات هدفها إتلاف الذاكرة والثقافة الوطنيتين، أما "منحلو" ذلك الزمن فقد كانوا يتصرفون من غير أن يوظفهم أحد ومن غير أن يتقاضوا أجرا من "المتدخل الأجنبي".



ليس الانحراف الجنسي هو الأصل في ظهور الحركات الأصولية، وليست القابلية السيكولوجية هي المفسر النهائي لتكوين الإنسان الأصولي.

قد تكون تلك القابلية مؤثرة، ولكن الأفكار الرائجة لا تروج من غير أن يسندها أصل اجتماعي (علاقات اجتماعية).

فكل يخدم مصلحته بنوع من التفسير أو التأويل الديني، فالحركات الإسلامية تخدم من تخدم، والفقهاء التقليدي يخدم من يخدم، وثقافة الانحلال والخلاعة و"الحداثوية" تخدم من تخدم... وهي تشكل تعويضا ومغرا للمنحرف جنسيا وغيره.

وعليه لا يمكن أن نفسر الانعكاس الفكري بالانعكاس السيكولوجي؛ فكلاهما انعكاس لصراعيين:

صراع مع السيطرة الطبقيّة الداخليّة (سيطرة البورجوازية الكبيرة).

وصراع مع الهيمنة الخارجيّة (هيمنة الرأسمالية العالميّة المتوحشة).

فما هو سبب هذا الربط التعسفي بين الأصولية والانحراف الجنسي إذن؟

وما بال الديالمي يرفض شمولية التاريخي (وهو الأقرب إلى التفسير أكثر من غيره) ويؤسس لشمولية السيكولوجي؟

إن عدم تحديد الديالمي للواقع بدقة، حيث تحديد التناقض الرئيس في كل مرحلة، هو ما جعله يسقط في:

- ابتغاء المعرفة في سياق غربي ونقد الفقهاء والوعاظ في سياق مغربي أو عربي، فتُلصَق بالفقيه أو الواعظ العربي -دون غيره- فكرتان مفادهما: المرأة هي الوعاء الجنسي للرجل (فاتنته ومحصنته) من جهة، والرجل العربي هو وحده صاحب العقل "الحريمي" من جهة أخرى.

تلتصق الفكرتان المذكورتان بالفقيه العربي وكأنه وحده المعني بهما، في حين أن الحقيقة هي عكس ذلك تماما.

فنظرة كتلك إلى المرأة، قد رفضها أبو حامد الغزالي وأكدها سيغموند فرويد معتبرا المرأة طرفا سلبيا في العملية الجنسية.⁶⁸

أما التفكير في الحريم، فقد انتشر بتفاوت معتبر في الغرب والشرق معا.⁶⁹

- البحث عن واقع الفتوى في الماضي (بشكل سطحي) وتجاهله (أو الجهل به) في الحاضر، وهنا يكيل الباحث بمكيالين: ينفي تقدمية الفقهاء في الحاضر حيث هي مطلوبة على شكل محافظة وتمسك بالثقافة الوطنية، ويقر بما يظنه كذلك في واقع غير واقعنا اليوم (في الماضي).

ومن غير اكتراث للشرط التاريخي الذي يفرض كل قول فقهي، يُمدح التمرد في الماضي باعتباره تقدماً، وتُذم المحافظة في الحاضر باعتبارها رجعية.

المحور الخامس: الجنس في سياق الصراع العالمي

1- أزمة النظام الرأسمالي وتصدير الانحراف الجنسي لدول الجنوب

هل النظام الرأسمالي في أزمة؟

هل الرأسمالية تُحتضر حقاً؟

لا يهتم الكثير من المحللين بالإجابة على هذين السؤالين، فينهمكون في تفسير واقع مجتمعاتهم في حاضرها دون ربطه بماضيها، ودون ربطها هي نفسها بكلها (=العالم).

إن هؤلاء يريدون أن يفهموا التغييرات الطارئة على واقعنا دون ربطها بالتحويلات التي تشهدها الرأسمالية المتوحشة، فيخرجون في نهاية المطاف بتفسير استعمارية لا أقل ولا أكثر.

69- راجع: "هل أنتم محصنون ضد الحريم؟"، فاطمة المرنيسي.

لا بد إذن من فهم واقعنا وأزماتنا بالرجوع إلى فهم واقع النظام الرأسمالي وأزماته، وذلك على جميع المستويات: الاقتصادية، الاجتماعية، والسياسية، والثقافية، والقيمية، والبيئية...

نعم، فالنظام الرأسمالي في أزمة. إنها في الحقيقة أزمات:

- اقتصادية: "احتكارات، مضاربات، إفلاسات، الربا الفاحش، تلاعبات في الأسعار، تناقص الأرباح، اقتصاديات الظلام..."

- اجتماعية: "تفكير وبطالة، تفاوتات أكبر بين الجهات والطبقات، انتشار الجريمة..."

- سياسية وثقافية: "تضييق على الحريات، مقاطعة الانتخابات، استقواء وتعدد المخابرات، سيادة السمسرة والاحتراف في السياسة..."

- قيمية: "العنف، الأنانية، التبطل والكسل، الاستهلاكية، الكذب والنميمة، الانحرافات وتفكك الروابط الأسرية (وهذه هي التي تهمنا في نقاشنا لهذا الشهر) والصدقة والزمانة والجيرة..."

- بيئية: "ثقب الأوزون، التصحر، اضطرابات المناخ، الضجيج، تناقص الغابات..."

لا يمكن أن نفصل أزمة عن أخرى، فالأزمات مترابطة ومتداخلة. ولا يمكن أن نفصل أزماتنا عن أزمات "المركز"، فتصدير الأزمات هو ما يتخذه النظام الرأسمالي حلاً لأزمته المركبة.⁷⁰

70- هذا تحليل لعبد الصمد بلكبير، خارطة بعنوان: "خارطة طريق لفهم الراهن"، مجلة الملتقى، العدد 25، مارس-أبريل 2011، على ظهر الغلاف.

يعيش "المركز الرأسمالي" أزمات كثيرة، كما رأينا؛ ومنها ما هو قيمي، حيث تنتشر قيم: الأنانية، والاستهلاكية، والانحراف الجنسي...

وهذه -في نظرنا- هي أصول الأزمات القيمية كلها.

فالأنانية تبعث على العنف والكذب والنميمة وتفكك روابط الصداقة والزمالة والغيرة...

والاستهلاكية تبعث على الخمول والكسل واللامبالاة...

والانحراف الجنسي يبعث على تفكك الروابط الأسرية والرجوع إلى "الغابوية"...

الانحراف الجنسي هو ما له علاقة بموضوعنا المقترح للنقاش، وهو ما نراه منتشرًا في بلداننا العربية أكثر من ذي قبل.

إننا لم نعد نسمع عن علاقات الزواج وحدها، ولا عن الزنا الممارس خارج مؤسسة الزواج فحسب، ولكننا وجدنا أنفسنا فجأة مطالبين بالتطبيع مع: الجنس الفموي، والجنس الشرجي، والجنس الصناعي، والجنس الفرجوي، واللواط، والسحاق... وغيرها من الانحرافات التي نُصدّر إلينا بشكل مدروس ومخطط له.

وإننا اليوم لمطالبون بمعرفة الكيفية التي يتم بها هذا التصدير؟

كما أننا مطالبون بتقصي الانحرافات الجنسية لدى الإنسان العربي وآثارها في نفسه ومجتمعه، مع تفسيرها والبحث عن أسبابها العميقة.

2-الجنس ومخاطر "الغريزية"

لقد ظهر الحب والقيم النبيلة مع تأسيس الأسرة، ومع تمييز الإنسان بين الرذيلة والفضيلة.

فتجاوز الإنسان نزعاته الحيوانية بالعمل والابتكار والعقل واللغة، ثم بالأسرة والدولة فيما بعد ذلك.

هذا ويبقى المجتمع مهددا على الدوام بالعودة إلى توحشه وغابويته، ما يعني حاجته إلى الدين (الأخلاق والقانون) باعتباره:

- مؤسسا للضمير.

- مشعلا للعواطف.

- مجسدا حاجة الإنسان إلى نظام تتحقق به مصالحه الفردية والجماعية...

الحب طارئ غير متأصل؛ لأن الناس ينزعون إلى الغريزية كلما خوطبت فيهم على جناح السرعة الفورية؛ فلو كان فيهم أصيلا، لما تركوه إلى الجنس الذي لا ضابط له.

والحب طارئ يستوجب الجدية والمسؤولية للحفاظ عليه، وذلك ما يوفره: الدين والتدين، الثقافة والتعليم النظامي الإجباري، الأسرة، الدولة... حسب الشروط التاريخية لكل مجتمع.

واليوم، تريد الرأسمالية المتوحشة أن تعيد الإنسان إلى "الغابوية"؛ فتخاطب فيه استعداداته للتحرر من القانون والقيم النبيلة، كما تستهدف فيه رغبته الدفينة ليتخلى عن كل ما يحد شهوته الجنسية ويضبطها.

انحطت الرأسمالية وانتكست، فانعكس كل ذلك على سلوك الإنسان في شتى مجالات حياته الخاصة والعامة (الفلسفة، الثقافة، السياسة، الإعلام، الاقتصاد، التلفزة، الصحافة...)⁷¹.

ليست الدعوة إلى الانضباط والاستتار عند الابتلاء، إذن، دعوة "أخلاقية أو إسلاموية" كما يحلو لبعضهم نعتها.

وإنما هي دعوة لمواجهة مخططات:

1 تفكيك دول الجنوب وإضعاف مجتمعاتها

2 الحد من النمو الديمغرافي للشعوب.

خلاصة الدراسة:

- تفسير النشاط الجنسي للإنسان هو ما يجب أن يُشرع فيه، وهو ما يجب أن يُحذر منه في نفس الوقت؛ فكل الدعوات التفكيكية خطيرة مهما كانت علمية ومقبولة في المختبرات، وذلك لأنها ببعض نتائجها إذا تفشت في العامة تكون لا تاريخية.

- الإسلام لا ينكر متعة الجنس، ولكنه يسعى إلى ضبطها وتنظيمها بأحكام الشريعة الإسلامية ومقاصدها.

71- راجع مقالا بعنوان: "الحب والاشتراكية"، لعبد الصمد بلكبير.

وهذه هي "استراتيجية الإسلام" التي تحصن الأسر وتحفظ الأنسال وتحقق المتعة الطبيعية (غير الزائفة) وتواجه استهداف الغرب الرأسمالي للنشاط الجنسي في الشرط العربي الإسلامي.

- في متن الإسلاميين ما هو صالح لإعادة استثماره إيديولوجيا وتاريخيا، إلا أن تصورهم النظري للنشاط الجنسي بقي قاصرا ومتخلفا؛ فمهما حاول محمد قطب أن يدافع عن النظرة الإسلامية للجنس بخلفية المتخصص في علم النفس، إلا أن ما اعتمده يبقى سطحيا وأقل عمقا مقارنة مع ما توصل إليه معاصروه من أطباء ومحللين نفسانيين.

ومهما حاول عبد الوهاب المسيري أن يبحث في الخلفيات "العقدية" التي تحكم من تكلموا في النشاط الجنسي للإنسان، ومهما بحث في الطرق التي تدار بها المعركة على الأسرة والمرأة، إلا أنه يبقى حبيس موقفه السلبي من "المادية" وحبيس نقده للحادثة وما بعدها على نفس الصعيد.

أما يوسف القرضاوي، فقد التفت إلى مثال "الوسطية" على حساب مثال "تقييد الحرية بضرورتها".

وهذا ما يعزز مثالية المتكلمين المسلمين، ويباعد بينهم وبين النظرية أكثر وأكثر.

وكل هذا يجعلنا نقول: التخلف النظري لدى الإسلاميين قائم، ولكن متنهم قابل للاستثمار إيديولوجيا في شرطنا التاريخي الحالي.

- هناك فرق شاسع بين ثورة جنسية دعا إليها فيلهلم رايش، وبين أخرى يدعو إليها اليوم عبد الصمد الديالمي؛ فالأولى ثورة بروليتارية على البورجوازية

والاغتراب الذي يفرضه نمط الإنتاج الرأسمالي، أما الثانية فهي تمكين لما تريده
الرأسمالية المتوحشة لدول الجنوب من تفكك وانهيار وضعف.
إن الفرق بين الرجلين منهجي من باب أولى؛ فالأول محلل نفساني ماركسي،
والثاني سوسيولوجي وضعاني.
- كل دعوة إلى الخلاعة والانحلال والسيولة الجنسية في دول الجنوب؛ ما هي
إلى صدى من أصداء تصدير النظام الرأسمالي أزماته إلى هذه الدول.
وبالتالي فكل دعوة إلى "الغريزية"، هي دعوة إلى "الحيوانية" و"الغابوية" و"ما
قبل الإنسانية".

إحياء
للتنمية الأخلاقية



Ihyae
Ethics Development



/IhyaeForum

جميع الحقوق محفوظة © 2020